



كلية العلوم الاجتماعية

المجلس العلمي

الرقم: 11/م.ع.ك.ع.ب/ 2026

مستغانم في 17 مارس 2026

مستخرج من محضر المجلس العلمي

اجتمع المجلس العلمي لكلية العلوم الاجتماعية بجامعة عبد الحميد بن باديس -
مستغانم في دورته العادية يوم الاثنين 16 مارس 2026، وكان من بين النقاط المدرجة ضمن

جدول أعماله طلبات المصادقة على المطبوعات البيداغوجية المرفقة بتقارير الخبرة.

وبناء على تقارير الخبرة الإيجابيين للأستاذين:

أ.د. العربي بوعمامة (أستاذ التعليم العالي)، الموقع من قبلها بتاريخ: 2026/03/08

أ.د. مرقومة منصور (أستاذ التعليم العالي)، الموقع من قبلها بتاريخ: 2026/03/10

وافق أعضاء المجلس العلمي بالإجماع على قبول المطبوعة البيداغوجية للأستاذ "بعلي

محمد السعيد" بعنوان "أثنوغرافيا جمهور المستخدمين" المقرر ضمن المواد المدرسة لمستوى

السنة الثانية ماستر الاتصال الجماهيري والوسائط المتعددة، السداسي الثالث للسنة الجامعية

2025-2024.

رئيس المجلس العلمي



أ.د. العربي مبالود

رئيس المجلس العلمي

لكلية العلوم الاجتماعية



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث

جامعة عبد احميد بن باديس - مستغانم

كلية العلوم الاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

شعبة علوم الاعلام والاتصال

مطبوعة بيداغوجية لفائدة طلبة السنة الثانية ماستر اتصال جماهيري ووسائط

جديدة

عنوان المادة : اثنوغرافيا جمهور المستخدمين

السداسي الثالث

تقديم : الأستاذ بعلي محمد سعيد

أستاذ انثروبولوجيا الاتصال

السنة الجامعية : 2025/2024

فهرس المحتويات

03ص.....	تقديم المادة
06ص.....	أهداف التكوين ومخرجات التعلم المنتظر
09ص.....	المحاضرة رقم 01: مدخل إلى الأنثروبولوجيا
16ص.....	المحاضرة رقم 02 : المدارس والتيارات الفكرية الأنثروبولوجية
37ص.....	المحاضرة رقم 03 : طبيعة الانثروبولوجيا
41ص.....	المحاضرة رقم 04: علاقة الانثروبولوجيا بباقي مجالات المعرفة الإنسانية
53ص.....	المحاضرة رقم 05 : بدايات دراسات الجمهور: من التأثير إلى التلقي النشط
58ص.....	المحاضرة رقم 06 : ماهية الإثنوغرافيا وأسسها النظرية
63ص.....	المحاضرة رقم 07 : ماهية الإثنوغرافيا والمنهج الإثنوغرافي
66ص.....	المحاضرة رقم 08 : البدايات الإثنوغرافية و تطورها في دراسات الجمهور
73ص.....	المحاضرة رقم 09: إثنوغرافيا الجمهور الرقمي
76ص.....	المحاضرة رقم 10 : مدخل نظري إلى إثنوغرافيا المنصات الرقمية
84ص.....	المحاضرة 11: التحول نحو الميدان الرقمي
87ص.....	المحاضرة رقم 12 : منهجية البحث الإثنوغرافي في دراسات الإعلام
91ص.....	المحاضرة 13: أدوات البحث الإثنوغرافي الرقمي
97ص.....	المحاضرة رقم 14 : نماذج لبحوث اثنوغرافية الجمهور

تقديم عام للمادة :

تندرج مادة "إثنوغرافيا جمهور المستخدمين" ضمن الوحدات المنهجية الأساسية المقررة لطلبة السنة الثانية ماستر تخصص اتصال جماهيري ووسائط جديدة، وتكتسي أهمية علمية ومعرفية خاصة بالنظر إلى التحولات العميقة التي عرفت دراسات الجمهور في حقل علوم الإعلام والاتصال خلال العقود الأخيرة. فقد انتقلت هذه الدراسات من المقاربات التقليدية التي ركزت على قياس التأثيرات المباشرة لوسائل الإعلام في المتلقين، واعتمدت بصورة كبيرة على المناهج الكمية والإحصائية، إلى مقاربات أكثر عمقا وانفتاحا على الأبعاد الاجتماعية والثقافية والرمزية للفعل الاتصالي، حيث أصبح الجمهور يُنظر إليه بوصفه فاعلا اجتماعيا وثقافيا نشطا يمتلك القدرة على التأويل والتفاوض وإعادة إنتاج المعاني، وليس مجرد مستقبل سلبي للرسائل الإعلامية. ومن هذا المنطلق، تسعى المادة إلى تعريف الطلبة بالأسس النظرية والمنهجية التي قامت عليها المقاربة الإثنوغرافية، وإبراز دورها في تجديد دراسات الجمهور من خلال الانتقال من الاهتمام بما تفعله وسائل الإعلام بالجمهور إلى دراسة ما يفعله الجمهور بوسائل الإعلام، وكيفية دمجها في حياته اليومية واستثمارها في بناء المعنى والهوية والعلاقات الاجتماعية.

وتتناول المادة الجذور الفكرية للإثنوغرافيا في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، وتتبع مسار انتقالها إلى الدراسات الثقافية والإعلامية، مع التوقف عند أبرز الاتجاهات والمدارس التي أسهمت في تطوير البحث الإثنوغرافي في مجال الإعلام والاتصال. كما تركز على دراسة الجمهور باعتباره جماعة بشرية تتشكل ممارساتها الاتصالية داخل سياقات اجتماعية

وثقافية وتاريخية محددة، الأمر الذي يقتضي فهم أنماط الاستخدام والتلقي والتفاعل في ضوء البيئة الاجتماعية والقيم الثقافية والمرجعيات الرمزية التي ينتمي إليها الأفراد. وفي هذا الإطار، يتعرف الطلبة على المفاهيم الأساسية المرتبطة بالإثنوغرافيا الإعلامية، مثل الثقافة اليومية، والممارسة الإعلامية، وإنتاج المعنى، والتلقي النشط، والاستخدامات والإشباع، والجماعات التفسيرية، والمجتمعات الافتراضية، بما يمكنهم من استيعاب التحولات التي مست علاقة الجمهور بوسائل الإعلام التقليدية والرقمية على حد سواء.

كما تهدف المادة إلى تمكين الطلبة من اكتساب المعارف والمهارات المنهجية الضرورية لإنجاز البحوث الكيفية المتعلقة بجمهور المستخدمين، وذلك من خلال التدريب على استخدام أدوات البحث الإثنوغرافي المختلفة، وفي مقدمتها الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات المتعمقة، والمجموعات البؤرية، والسيرة الذاتية، وتحليل الممارسات والخطابات اليومية، مع التعرف على شروط تطبيقها الميداني وكيفية توظيفها في دراسة الظواهر الإعلامية والاتصالية. وتولي المادة أهمية خاصة للإثنوغرافيا الرقمية باعتبارها امتدادًا معاصرًا للبحث الإثنوغرافي في ظل انتشار الإنترنت ومنصات التواصل الاجتماعي والبيئات الرقمية التفاعلية، حيث يتم تناول أساليب دراسة المجتمعات الافتراضية وتحليل سلوك المستخدمين داخل الفضاء الرقمي، وفهم أشكال التفاعل والمشاركة وصناعة المحتوى والتعبير عن الهوية والانتماء في البيئات الشبكية المختلفة.

وتسعى المادة كذلك إلى تنمية قدرات الطلبة على التفكير النقدي والتحليل التأويلي للظواهر الإعلامية والاتصالية، من خلال تمكينهم من قراءة الممارسات الاتصالية في سياقاتها

الاجتماعية والثقافية، والتميز بين المناهج الكمية والكيفية في دراسة الجمهور، وفهم مزايا كل مقارنة وحدودها المعرفية والمنهجية. كما تهدف إلى تطوير كفاءاتهم البحثية في تصميم المشاريع الميدانية، وصياغة الإشكاليات العلمية، وجمع البيانات النوعية وتحليلها وتفسيرها، بما يسمح لهم بإنتاج معرفة علمية دقيقة حول جمهور المستخدمين في البيئات التقليدية والرقمية. وفي نهاية التكوين، يُنتظر من الطالب أن يكون قادرًا على فهم التحولات المعاصرة التي مست مفهوم الجمهور، واستيعاب مكانة الإثنوغرافيا في الدراسات الإعلامية الحديثة، وتوظيف أدواتها ومقارباتها في دراسة مختلف الممارسات الاتصالية والرقمية، وإنجاز بحوث ميدانية رصينة تستجيب للمعايير العلمية والأكاديمية المعتمدة في مجال علوم الإعلام والاتصال.



أهداف التكوين ومخرجات التعلم المنتظرة:

في نهاية هذا المقرر، يُنتظر من الطالب أن يكون قد اكتسب معرفة معمقة بالمرتكزات النظرية والفكرية للأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا، وأن يستوعب تطور هذين الحقلين المعرفيين ودورهما في دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية والاتصالية. كما يصبح قادرًا على فهم العلاقة الوثيقة التي نشأت بين الأنثروبولوجيا وعلوم الإعلام والاتصال، خاصة في ظل التحولات التي عرفتها دراسات الجمهور وانتقالها من الاهتمام بقياس التأثيرات الإعلامية المباشرة إلى التركيز على فهم الممارسات اليومية للجمهور وآليات إنتاج المعنى داخل السياقات الاجتماعية والثقافية المختلفة. ويُنتظر منه كذلك أن يدرك الكيفية التي أسهمت بها المقاربة الإثنوغرافية في تجديد البحث الإعلامي من خلال الاهتمام بالفاعلين الاجتماعيين وتجارهم الحياتية وتفاعلاتهم مع الوسائط الإعلامية والتكنولوجية.

كما يُفترض أن يكتسب الطالب القدرة على التمييز بين الإثنوغرافيا بوصفها منهجًا بحثيًا قائمًا على الوصف العميق للثقافات والممارسات الاجتماعية من خلال المعيشة والملاحظة المباشرة، وبين الإثنو-منهجية التي تهتم بدراسة الطرق والأساليب التي يعتمد عليها الأفراد في إنتاج النظام الاجتماعي وفهم العالم المحيط بهم في تفاعلاتهم اليومية. ويساعد هذا التمييز الطالب على إدراك خصوصية كل مقاربة من حيث أهدافها وأدواتها وإجراءاتها المنهجية ومجالات تطبيقها داخل بحوث الإعلام والاتصال.



أهدافها وأدواتها وإجراءاتها المنهجية ومجالات تطبيقها داخل بحوث الإعلام والاتصال.

وعلى المستوى المنهجي والتطبيقي، يُنتظر من الطالب أن يتمكن من توظيف مختلف أدوات وتقنيات البحث الإثنوغرافي في دراسة جمهور وسائل الإعلام والاتصال، بما في ذلك الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات المتعمقة، والمجموعات البؤرية، وتحليل الخطابات والممارسات اليومية، وتدوين الملاحظات الميدانية، وبناء السجلات والوصف الإثنوغرافي للظواهر المدروسة. كما يصبح قادرًا على اختيار الأداة المناسبة لطبيعة الإشكالية البحثية، وجمع البيانات الكيفية بطريقة علمية، وتنظيمها وتصنيفها وتحليلها وفق مقاربات تفسيرية تسمح بفهم الدلالات والمعاني الكامنة وراء السلوكيات الاتصالية المختلفة.

ومن جهة أخرى، يُنتظر من الطالب أن يطور قدرته على تحليل سلوكيات المستخدمين في الوسائط التقليدية والرقمية، وفهم أنماط التلقي والاستهلاك الإعلامي والمشاركة الرقمية، والكشف عن العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والرمزية التي تؤثر في استخدام الأفراد لوسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية المختلفة. كما يصبح قادرًا على دراسة الممارسات الاتصالية داخل البيئات الرقمية المعاصرة، وتحليل أشكال التفاعل وإنتاج المحتوى وبناء الهويات الرقمية وتشكيل المجتمعات الافتراضية، مع إدراك الخصوصيات التي تميز الجمهور الرقمي عن الجمهور التقليدي.

وفي نهاية التكوين، يكون الطالب مؤهلاً لتصميم وإنجاز بحث ميداني كفي متكامل حول جمهور وسيلة إعلامية أو منصة رقمية أو ظاهرة اتصالية معينة، من خلال تحديد موضوع البحث وصياغة الإشكالية والأسئلة البحثية، واختيار المنهج

والأدوات المناسبة، وجمع المعطيات الميدانية وتحليلها وتفسيرها، ثم عرض النتائج ومناقشتها وصياغة الاستنتاجات وفق القواعد العلمية والأكاديمية المعتمدة. كما يُنتظر منه أن يوظف ما اكتسبه من معارف ومهارات في إنتاج دراسات علمية رصينة تسهم في فهم التحولات التي يشهدها جمهور المستخدمين في عصر الإعلام الرقمي، وتمكنه من معالجة القضايا الاتصالية المعاصرة برؤية نقدية ومنهجية تجمع بين التحليل العلمي والفهم العميق للسياقات الثقافية والاجتماعية التي تتشكل داخلها الممارسات الإعلامية والاتصالية.

المحاضرة رقم 01: مدخل إلى الأنثروبولوجيا

أولاً: مفهوم الأنثروبولوجيا

الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان دراسة شاملة ومتكاملة من حيث أبعاده البيولوجية والاجتماعية والثقافية والرمزية، وهي بذلك تتجاوز النظر إلى الإنسان ككائن عضوي فحسب، لتدرسه بوصفه كائناً منتجا للمعنى، صانعا للثقافة، ومؤسساً للأنساق الرمزية التي تمنح العالم المحيط به قابلية للفهم والتأويل. فالإنسان في المنظور الأنثروبولوجي لا يعيش داخل الطبيعة فقط، بل داخل شبكة من الرموز والدلالات التي ينسجها بنفسه، وهو ما عبر عنه عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي Clifford Geertz، "حين اعتبر الثقافة "نسقا من المعاني المنسوجة التي يحيط بها الإنسان نفسه". اصطلاحاً هي كلمة انجليزية مشتقة من الاصل اليوناني المكون من مقطعين "انثروبوس anthropos ومعناه الانسان ولزجوس logos ومعناه علم وبذلك يصبح معنى الانثروبولوجيا من حيث اللفظ علم الانسان أو العلم الذي يدرس الانسان .

لذلك تعرف الانثروبولوجيا بانها العلم الذي يدرس الانسان من حيث هو كائن عضوي حي يعيش في مجتمع تسوده نظم انساق... الخ في ظل ثقافة معينة يقوم باعمال متعددة ويسلك سلوكاً محدداً وهو ايضا العلم الذي يدرس الحياة البدائية والحياة الحديثة المعاصرة ويحاول التنبؤ بمستقبل الانسان معتمداً على تطوره عبر التاريخ الانساني الطويل .

يطلق عليه ايضا مصطلح "الاناسة" العلم الذي يدرس الانسان كمخلوق ينتمي إلى العالم الحيواني من جهة ومن جهة اخرى انه الوحيد من الانواع الحيوانية كلها الذي يصنع الثقافة ويبدعها والمخلوق الذي يبتدعها جميعاً

تعرف الأنثروبولوجيا بصيغة مختصرة وشاملة بانها دراسة الانسان ككائن وحيد بذاته أو منعزل عن ابناء جنسه ، انما تدرسه بوضعه كائنا اجتماعيا بطبعه حيا في مجتمع معين له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معين .

تسعى الأنثروبولوجيا أيضا إلى فهم الإنسان في سياقه التاريخي والحضاري، وتبحث في كيفية تشكل النظم الاجتماعية التي تنظم العلاقات بين الأفراد، سواء كانت نظاما قرابية، سياسية، اقتصادية أو قانونية. فالنظام الاجتماعي لا يفهم بوصفه بنية مؤسساتية فقط، بل بوصفه تعبيراً عن تصورات عميقة حول السلطة، الشرعية، العدالة، والانتماء. ومن هنا اهتمت الدراسات الكلاسيكية، مثل أعمال Bronislaw Malinowski، "polish"، بتحليل البنى القروية والوظائف الاجتماعية للمؤسسات داخل المجتمعات المحلية، معتبرة أن كل مؤسسة تؤدي وظيفة محددة في حفظ توازن النسق الاجتماعي.

كما تولي الأنثروبولوجيا عناية خاصة بالمعتقدات والطقوس، إذ ترى فيها مدخلا أساسيا لفهم رؤية الجماعات للعالم. فالطقوس ليست مجرد ممارسات شكلية، بل أفعال رمزية تعيد إنتاج القيم الجماعية، وترسخ الانتماء، وتؤطر العلاقة بين المقدس واليومي. وقد بين Marcel Mauss، في تحليله لظاهرة "الهبة" أن الأفعال الاجتماعية التي تبدو مادية تحمل في عمقها أبعادا رمزية وأخلاقية تعكس منطق المجتمع بأكمله.

وتهتم الأنثروبولوجيا أيضا بأنماط العيش اليومية، باعتبار الحياة اليومية المجال الذي تتجسد فيه الثقافة عملياً. فاختيارات اللباس، تنظيم الزمن، أنماط الاستهلاك، العلاقات الأسرية، تقسيم العمل، كلها تشكل مؤشرات على البنية العميقة للقيم والمعايير. ومن خلال المعاشة الطويلة داخل الميدان، يسعى الباحث إلى فهم كيف يُنتج الأفراد المعنى من خلال ممارساتهم الاعتيادية، وكيف تتحول العادات إلى مسلمات ثقافية غير مُساءل عنها.

أما آليات إنتاج المعنى فتشكل محورا مركزيا في التفكير الأنثروبولوجي المعاصر، خاصة مع إسهامات البنيوية لدى-Claude Lévi-Strauss"، الذي رأى أن العقل البشري ينظم العالم عبر ثنائيات رمزية (طبيعة/ثقافة، خام/مطبوخ، ذكر/أنثى...)، وأن الثقافة تعكس بنيات ذهنية عميقة مشتركة بين البشر. وفي السياق نفسه، ساهمت Margaret Mead"، في إظهار نسبية القيم الثقافية من خلال دراساتها المقارنة، مؤكدة أن ما يعد طبيعياً في مجتمع ما قد يكون بناءً ثقافياً في مجتمع آخر.

وعليه، فإن الأنثروبولوجيا لا تدرس الوقائع بوصفها معطيات جاهزة، بل تحللها باعتبارها تعبيرات عن أنساق دلالية كامنة، وتسعى إلى الكشف عن المعنى الذي يمنحه الفاعلون الاجتماعيون لأفعالهم.

بداية تشكل المعرفة الانثروبولوجية :

ينظر الى علم " الأنثروبولوجيا " على أنها علم حديث نسبيا ، بالنظر للسياق الزمني لظهوره كحقل معرفي مستقل عن باقي العلوم الأخرى كالفلسفة والطب والفلك التي عرفها الانسان وتفاعل معها في سياقات زمنية سابقة باعتبار ان البحث في شؤون الإنسان والمجتمعات الإنسانية قديم قدم الإنسان، فمذ وعى ذاته بدأ يسعى للتفاعل الإيجابي مع بيئته الطبيعية والاجتماعية ويطرح الأسئلة حول موضوع مختلفة لتتحول تلك الأسئلة الى معارف إنسانية توسعت دائرتها لتصبح علوما مختلفة .

دأب الفلاسفة وأهل الفكر والباحثون غي حقل المعرفة الانسانية عبر التاريخ الإنساني، على التفكير في موضوع علاقة الانسان بمحيطه الاجتماعي لضبط معادلات التفاعل وضع نظريات عن طبيعة المجتمعات البشرية، وما يضمه نسيجها وأبنيتها الثقافية، ووضع التقسيمات المختلفة التراتبية الاجتماعية في كل نظام مجتمع وفئاته بحسب عاداتها ومشاعرها ومصالحها.

لعبت الرحلات التجارية و الاكتشافات الجغرافية، وحتى الحروب كحالات اتصال أنساني ، دورا هاما في حدوث الاتصالات المختلفة بين الشعوب والمجتمعات البشرية، حيث قرّبت فيما بينها وأتاحت معرفة كلّ منها بالآخر، ولا سيّما ما يتعلّق باللغة والتقاليد والثقافات المتبانية .. فالأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان دراسةً شاملةً تشمل الأبعاد البيولوجية، الاجتماعية، الثقافية، والرمزية. فهي تتجاوز النظرة إلى الإنسان ككائن عضوي فقط، لتدرسه بوصفه كائناً منتجاً للمعنى وصانعاً للثقافة والأنساق الرمزية التي تمنح العالم المحيط به قابلية للفهم والتأويل (Geertz, 1973, ص. 89).

يعرفها الباحث العربي عبد الله الغدامي بأنها: "علم يتعامل مع الإنسان في أبعاده التاريخية والاجتماعية والثقافية، ويسعى لفهم أنساق الحياة الإنسانية وأشكال تواصلها وتكوينها" (الغدامي، 2005، ص. 45).

اصطلاحًا، كلمة **Anthropology** مشتقة من اللفظ اليوناني **Anthropos** بمعنى "الإنسان" و **Logos** بمعنى "العلم"، لتكون معناها اللفظي "علم الإنسان". (Eriksen, 2015, p. 12)

ومن المنظور العربي يُعرّف الدكتور حسين عكاشة الأنثروبولوجيا بأنها: "علم يبحث في الإنسان ومجتمعاته داخل نسق ثقافي معين، ويحلل ممارساته الاجتماعية والطقسية واللغوية" (عكاشة، 2008، ص. 22).

ثانياً: أهداف الأنثروبولوجيا

تهدف الأنثروبولوجيا إلى فهم الإنسان في سياقه التاريخي والحضاري وتحليل النظم الاجتماعية التي تنظم العلاقات بين الأفراد داخل المجتمع (Malinowski, 1922, p. 29). ويؤكد الباحثان العربيان سالم بن ناصر وفاطمة المقدم أن "الأنثروبولوجيا تسعى لفهم كيف تنتج الجماعات معانيها

وتعيد إنتاج قواعدها الثقافية والاجتماعية عبر الزمن" (بن ناصر والمقدم، 2014، ص. 67).

كما تولي الأنثروبولوجيا اهتمامًا خاصًا بالمعتقدات والطقوس، إذ تُعد مدخلا أساسيا لفهم رؤية الجماعات للعالم. فالطقوس ليست مجرد ممارسات شكلية، بل أفعالاً رمزية تجسد القيم الجماعية والعلاقات بين المقدس واليومي (Mauss, 1925, p. 45).

تُشير الدراسات العربية أيضًا إلى أن "الطقوس الاجتماعية تعكس صورًا من القيم الثقافية التي تتناقلها الأجيال وتعيد إنتاجها" (الحكيم، 2011، ص. 102).

ثالثًا: آليات إنتاج المعنى

تشكل آليات إنتاج المعنى محورًا في التفكير الأنثروبولوجي، حيث يرى Claude Lévi-Strauss أن العقل البشري ينظم العالم عبر ثنائيات رمزية مثل (طبيعة/ثقافة، ذكر/أنثى)، مما يكشف بنى ثقافية ذهنية مشتركة (Lévi-Strauss, 1963, p. 25).

وفي السياق العربي، يشير عبد الكريم كرام إلى أن "التداخل بين الرمز والمعنى في الحياة الاجتماعية العربية يعكس أنماطًا من هيمنة الرموز في تأسيس قيمة الانتماء والهوية" (كرام، 2016، ص. 58).

ساهمت Margaret Mead في إبراز نسبية القيم الثقافية من خلال الدراسات المقارنة، مؤكدة أن ما يعتبر طبيعيًا في مجتمع ما قد يكون بناءً ثقافيًا في آخر. (Mead, 1928, p. 57).

رابعًا: البدايات التاريخية للأنثروبولوجيا

على الرغم من حداثة كحقل معرفي مستقل، فإن توجه الإنسان نحو فهم الإنسان الآخر قديم جدًا. منذ وعي الإنسان لذاته، طرح أسئلة عن التفاعلات الاجتماعية والثقافية التي تحيط به. (Stocking, 1991, p. 15)

يربط الباحث العربي عبد الواحد إبراهيم بين بدايات الفكر الأنثروبولوجي والنظريات الفلسفية القديمة في العالم العربي، حين قال: "تأمل الفلاسفة العرب في الإنسان وعلاقاته مع محيطه يشكل جذرًا معرفيًا لمفاهيم قريبة من الأنثروبولوجيا الحديثة" (إبراهيم، 2013، ص. 30).

وساهمت الاكتشافات الجغرافية والحروب التجارية في تعزيز الاتصالات بين الشعوب، مما أتاح للباحثين فهمًا أوسع للغات والتقاليد والثقافات المختلفة. (Boas, 1911, p. 50)

خامسًا: مجالات فرعية وأهمية الميدان

تشمل الأنثروبولوجيا عدة مجالات فرعية:

1. الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية: دراسة البنى الاجتماعية والطقوس والقيم.
2. الأنثروبولوجيا البيولوجية: دراسة الإنسان من منظور تطوري وجيني.
3. الأنثروبولوجيا اللغوية: تحليل اللغة وعلاقتها بالثقافة.
4. الأنثروبولوجيا التطبيقية: استخدام المعرفة الأنثروبولوجية لحل مشكلات اجتماعية.

ونعد المعيشة الميدانية حجر الزاوية في الأنثروبولوجيا، حيث تمكن الباحث من فهم ثقافة الجماعات من داخلها. (Malinowski, 1922, p. 34).

وفي السياق العربي، يبرز محمد علي الجمل أهمية الحقل الميداني في الدراسات الاجتماعية قائلاً: "العمل الميداني هو المكان الذي تتحقق فيه النظرية وتتكشف فيه تفاصيل الحياة اليومية للجماعات الثقافية" (الجمل، 2017، ص. 88).

المحاضرة رقم 02 : المدارس والتيارات الفكرية الأنثروبولوجية

تبنى المعرفة العلمية من خلال مناهج وسيرورة من التساؤلات والتجارب. ويُعرّف أينشتاين العلم بأنه السعي عن طريق التفكير المنطقي نحو إدراك الظواهر الممكن ملاحظتها حسيّاً في العالم في ارتباط شامل قدر الإمكان، حيث يُعد العلم تفكيراً منهجياً موجهاً نحو اكتشاف العلاقات التي تنتظم وفقها تجاربنا الحسية. (Ali, 2006, p. 27) وبمعنى آخر، فإن العلم هو عملية سعي ومحاولة عبر التاريخ من أجل الوصول إلى تفسير الظواهر المدركة حسيّاً، والعمل على فهمها بشكل منظم من خلال اكتشاف القوانين التي تتحكم فيها.

ورغم أن العلم في جوهره سيرورة متواصلة، فإن المعرفة الإنسانية تتجه نحو مجال آخر يتمثل في الطرح المتكرر للأسئلة، مما يجعل العلوم الإنسانية في بحث مستمر عن الإشكالات وبوتيرة غير منتظمة. ورغم وجود بعض الحقول المعرفية داخل العلوم الإنسانية مثل التاريخ وعلم الاجتماع، فإنها، نتيجة لطبيعة موضوعها وتعدد أسئلتها، تبدو غير مكتملة من الناحية الإستمولوجية، لأنها لا تصل إلى قوانين صارمة بالمعنى التجريبي. (Giddens, 1993) وفي المقابل، توجد علوم إنسانية تحمل مشروع دراسة الإنسان في شموليته، كما هو الحال في الأنثروبولوجيا.

تشكلت الإرهاصات الأولى للأنثروبولوجيا مع بداية القرن التاسع عشر، عقب مرحلة الثورة الصناعية، وهي المرحلة التي شهدت تغيرات جوهرية وبنوية في علاقة الإنسان بالطبيعة وبالآلة، إضافة إلى التحولات العميقة في التنظيم الاجتماعي الأوروبي. (Eriksen, 2001) وقد ساهم هذا السياق في بروز الحاجة إلى دراسة الشعوب والثقافات غير الأوروبية.

ويرى بعض الباحثين أن بدايات الأنثروبولوجيا ترتبط بأدبيات الرحلات والاكتشافات الجغرافية، بينما تُرجع بعض الآراء الأخرى جذورها إلى المؤرخ الإغريقي هيرودوت، الذي يُعتبر من أوائل الرحالة ذوي النزعة الوصفية للشعوب، حيث قدم وصفاً دقيقاً للعادات والتقاليد والأنماط الاجتماعية للشعوب التي زارها (Herodotus, trans. 2003; فهميم، 1986).

يمكن تعريف الأنثروبولوجيا بأنها الدراسة المقارنة للإنسان ومجتمعاته وعوالمه الثقافية، إذ يركز هذا الحقل المعرفي منذ نشأته على المقارنة بين المجتمعات المتطورة والمجتمعات البسيطة في محاولة لفهم التنوع الثقافي والإنساني. (Barnard, 2000) وقد ظهرت عدة مدارس أنثروبولوجية حاولت تفسير الثقافة والمجتمع والإنسان، من أبرزها: المدرسة البريطانية،

المدرسة الأمريكية، المدرسة الفرنسية، والمدرسة الألمانية، حيث تتميز كل مدرسة بتصورها الخاص ومنهجها في دراسة الظواهر الأنثروبولوجية.

أولاً: المدرسة البريطانية في الأنثروبولوجيا

ارتبطت نشأة الأنثروبولوجيا البريطانية بالسياق التاريخي الذي شهدته بريطانيا خلال القرن التاسع عشر، حيث تزامن توسعها الاستعماري مع الحاجة إلى معرفة الشعوب الخاضعة لسلطتها وإدارتها. وقد ساهمت الرحلات الاستكشافية والتجارة الخارجية في جمع كمّ هائل من المعارف حول المجتمعات غير الأوروبية، الأمر الذي وقر مادة أولية مهمة لتطور الدراسات الأنثروبولوجية.

في بداياتها، لم تحظ الأنثروبولوجيا باعتراف أكاديمي واسع داخل الجامعات البريطانية، إذ اعتبرها بعض الباحثين مجالاً ثانوياً مقارنة بالعلوم الطبيعية أو الدراسات الكلاسيكية. غير أن التطورات السياسية والاقتصادية التي رافقت الثورة الصناعية والتوسع الاستعماري دفعت إلى الاهتمام المتزايد بدراسة المجتمعات الإنسانية وثقافتها المختلفة.

كما ساهمت بعض الحركات الإنسانية والإصلاحية، مثل جماعات "الكويكرز (Quakers)"، في إثارة الاهتمام بأوضاع الشعوب المستعمرة وبقضايا الرق والعبودية، وهو ما وقر مناخاً ملائماً لنشوء تساؤلات حول التنوع الثقافي والاختلافات الاجتماعية بين المجتمعات.

ويُعد إدوارد برنت تايلور (1832-1917) (Edward Burnett Tylor) من أبرز رواد المدرسة البريطانية وأحد المؤسسين الفعليين للأنثروبولوجيا الحديثة. وقد سافر إلى المكسيك حيث أتاحت له فرصة الاحتكاك المباشر بثقافات مغايرة للثقافة الأوروبية، الأمر الذي أثر في توجهاته الفكرية والعلمية. وبعد عودته، دوّن ملاحظاته وانطباعاته حول المجتمعات التي

زارها، وأسهمت أعماله في ترسيخ المنهج المقارن في دراسة الثقافات الإنسانية.

ويُعتبر كتابه "الثقافة البدائية (Primitive Culture)" الصادر سنة 1871 من أهم المؤلفات المؤسسة للأنثروبولوجيا، إذ قدّم فيه تعريفاً شهيراً للثقافة باعتبارها «ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع». وقد شكّل هذا التعريف نقطة تحول أساسية في الدراسات الأنثروبولوجية، لأنه نقل مفهوم الثقافة من المجال النخبوي الضيق إلى إطار شامل يضم مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية.

وانطلاقاً من المنظور التطوري، افترض تايلور أن المجتمعات الإنسانية تمر بمراحل متعاقبة من التطور تبدأ من البساطة وتنتهي بالحضارة، وهو التصور الذي هيمن على الأنثروبولوجيا خلال العقود الأولى من نشأتها، قبل أن تتعرض هذه الأفكار إلى النقد والمراجعة من قبل مدارس أنثروبولوجية لاحقة.

بالطبع. النص الأول الذي أرسلته يتناول ثلاثة محاور مترابطة: العلم والمعرفة العلمية، العلوم الإنسانية وإشكالية بناء المعرفة، ثم نشأة الأنثروبولوجيا وتطور المدرسة البريطانية. ولتحويله إلى نص أكاديمي متماسك يصلح لمذكرة أو أطروحة، ينبغي إعادة بنائه وفق تسلسل منطقي يبدأ بمفهوم العلم ثم ينتقل إلى العلوم الإنسانية فالأنثروبولوجيا والمدرسة البريطانية.

العلم والمعرفة الإنسانية ونشأة الأنثروبولوجيا: المدرسة البريطانية نموذجاً

تُبنى المعرفة العلمية من خلال مناهج دقيقة وسيرورة متواصلة من التساؤلات والملاحظات والتجارب التي تهدف إلى فهم الظواهر وتفسيرها. ويعرّف ألبرت أينشتاين العلم بأنه «السعي عن طريق التفكير المنطقي نحو إيجاد تفسير للظواهر الممكن إدراكها حسيّاً في العالم ضمن ارتباط شامل قدر الإمكان» (حسين علي، 2006، ص27). ومن هذا المنطلق، يمكن اعتبار العلم عملية تاريخية متواصلة يسعى الإنسان من خلالها إلى اكتشاف القوانين والعلاقات التي تحكم الظواهر الطبيعية والاجتماعية، وذلك عبر منهجية منظمة تقوم على الملاحظة والتحليل والتفسير.

غير أن العلوم الإنسانية تختلف عن العلوم الطبيعية في طبيعة موضوعها ومنهجها؛ فهي تدرس الإنسان بوصفه كائناً واعياً ومنتجاً للمعنى والثقافة، الأمر الذي يجعل المعرفة فيها أكثر تعقيداً وأقل قابلية للحسم النهائي. ولذلك فإن المعرفة الإنسانية تتغذى باستمرار من إعادة طرح الأسئلة وإعادة النظر في الأجوبة القائمة، مما يجعلها في حالة مراجعة دائمة. ويلاحظ أن حقولاً معرفية مثل التاريخ وعلم الاجتماع ما تزال تشهد نقاشات إبستمولوجية حول مناهجها وحدودها العلمية، بينما برزت الأنثروبولوجيا باعتبارها أحد العلوم التي جعلت الإنسان في شموليته محوراً رئيساً للدراسة.

وقد تشكلت الإرهاصات الأولى للأنثروبولوجيا الحديثة خلال القرن التاسع عشر، بالتزامن مع التحولات الكبرى التي أحدثتها الثورة الصناعية في أوروبا. فقد أدت هذه الثورة إلى تغييرات عميقة في علاقة الإنسان بالطبيعة، كما أحدثت تطورات هائلة في مجالات التكنولوجيا والاقتصاد والتنظيم الاجتماعي. وفي الوقت نفسه، ساهم التوسع الاستعماري الأوروبي في احتكاك الأوروبيين بشعوب وثقافات مختلفة، الأمر الذي أثار التساؤلات حول التنوع الثقافي وأشكال التنظيم الاجتماعي لدى المجتمعات غير الأوروبية.

ويرجع بعض الباحثين البدايات الفكرية للأنثروبولوجيا إلى أدبيات الرحلات والاستكشافات الجغرافية التي سبقت ظهورها كعلم مستقل. وفي هذا السياق، غالباً ما يُشار إلى المؤرخ الإغريقي هيرودوت بوصفه أحد أوائل من قدّموا أوصافاً تفصيلية للشعوب المختلفة، حيث جمع معلومات عن عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها وأصولها، مما دفع بعض الباحثين إلى اعتباره رائداً مبكراً للفكر الأنثروبولوجي (فهيم، 1986).

وتُعرّف الأنثروبولوجيا بأنها العلم الذي يدرس الإنسان دراسة شاملة ومقارنة من حيث أبعاده البيولوجية والاجتماعية والثقافية. وقد انشغل هذا الحقل منذ بداياته بمقارنة المجتمعات الأوروبية الصناعية بالمجتمعات التقليدية أو ما كان يُطلق عليها آنذاك "المجتمعات البدائية"، سعياً إلى فهم أوجه التشابه والاختلاف بينها. ومن هذا الاهتمام ظهرت مدارس أنثروبولوجية متعددة، من أبرزها المدرسة البريطانية والمدرسة الفرنسية والمدرسة الألمانية والمدرسة الأمريكية، ولكل منها رؤيتها الخاصة للثقافة والمجتمع والإنسان.

المدرسة البريطانية: السياق التاريخي والفكري

ارتبطت نشأة المدرسة البريطانية بالسياق السياسي والاقتصادي الذي عرفته بريطانيا خلال القرن التاسع عشر. فقد ساهمت الثورة الصناعية في تعزيز القوة الاقتصادية لبريطانيا، بينما أدى توسعها الاستعماري إلى احتكاكها المباشر بمجتمعات وثقافات متنوعة في إفريقيا وآسيا وأوقيانوسيا. وقد وُفّر هذا الاحتكاك مادة غنية للباحثين الراغبين في دراسة الشعوب المختلفة وفهم أنماط حياتها.

ويشير بعض الباحثين إلى أن السياسة الاستعمارية البريطانية تميزت بمحاولة الحفاظ على بعض البنى الاجتماعية التقليدية للسكان المحليين مع مراقبتها وإدارتها من الخارج، وهو ما جعل المعرفة الأنثروبولوجية أداة

مهمة لفهم المجتمعات المستعمرة وتسييرها. (Kilani, 2009, p.153). كما ساهمت الحركات الإنسانية والإصلاحية، خاصة جماعات الكويكرز (Quakers)، في إثارة الاهتمام بأوضاع الشعوب المستعمرة وقضايا الرق والعبودية، الأمر الذي شجع على جمع المعلومات حول الثقافات المختلفة.

إدوارد تايلور ونظرية التطور الثقافي

يُعد إدوارد برنت تايلور (1832-1917) المؤسس الفعلي للأنثروبولوجيا الأكاديمية في بريطانيا. وقد تأثر خلال رحلته إلى المكسيك بالثقافات المحلية، فدفعه ذلك إلى دراسة التنوع الثقافي ومحاولة تفسير أصول المعتقدات والعادات الإنسانية.

وفي كتابه الشهير الثقافة البدائية قدم تايلور أحد أشهر تعريفات الثقافة، حيث اعتبرها «ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع». وقد شكّل هذا التعريف نقطة تحول مركزية في الفكر الأنثروبولوجي لأنه وسّع مفهوم الثقافة ليشمل مختلف مظاهر الحياة الإنسانية.

كما تبنى تايلور المنظور التطوري الذي يرى أن المجتمعات الإنسانية تمر بمراحل متدرجة من التطور تبدأ من الهمجية ثم البربرية وصولاً إلى الحضارة، معتبراً أن الاختلافات بين المجتمعات ليست اختلافات جوهرية بل تعكس درجات متفاوتة من التطور الثقافي.

جيمس فريزر ودراسة السحر والدين

يُعد جيمس جورج فريزر (1854-1941) من أبرز ممثلي الاتجاه التطوري. وقد اشتهر بكتابه الغصن الذهبي الذي حاول من خلاله تفسير

العلاقة بين السحر والدين والعلم. ورأى فريزر أن الفكر الإنساني مر بثلاث مراحل رئيسية: مرحلة السحر، ثم مرحلة الدين، وأخيراً مرحلة العلم.

برونيسلاف مالينوفسكي والوظيفية

شهدت الأنثروبولوجيا البريطانية تحولاً جذرياً مع أعمال برونيسلاف مالينوفسكي الذي انتقد الطابع التأملي للاتجاه التطوري. وقد دعا إلى الاعتماد على العمل الميداني والملاحظة بالمشاركة باعتبارهما أساس البحث الأنثروبولوجي.

ورأى مالينوفسكي أن المؤسسات الاجتماعية والثقافية تؤدي وظائف محددة تسهم في إشباع حاجات الأفراد البيولوجية والنفسية والاجتماعية. وقد طبق منهجه خلال دراسته لسكان جزر تروبرياندا، التي أصبحت نموذجاً كلاسيكياً في البحث الأنثروبولوجي الميداني.

ألفرد رادكليف براون والبنائية الوظيفية

يمثل ألفرد رادكليف براون مرحلة متقدمة من المدرسة البريطانية. فقد ركز على دراسة البنية الاجتماعية والعلاقات التي تربط الأفراد والجماعات داخل المجتمع، معتبراً أن وظيفة المؤسسات تتمثل في المحافظة على استقرار النظام الاجتماعي واستمراره.

وخلافاً لمالينوفسكي الذي ركز على حاجات الفرد، اهتم براون بالبنية الاجتماعية باعتبارها وحدة التحليل الأساسية، وهو ما أدى إلى ظهور الاتجاه المعروف بالبنائية الوظيفية.

نقد المدرسة البريطانية

رغم الإسهامات الكبيرة للمدرسة البريطانية في تطوير الأنثروبولوجيا، فإنها تعرضت لعدة انتقادات. فقد وُجِه النقد إلى الاتجاه التطوري بسبب

نزوعه إلى المركزية الأوروبية وافترضه تفوق الحضارة الغربية. كما انتقدت الوظيفية لتركيزها على الاستقرار الاجتماعي وإهمالها للصراعات والتغيرات التاريخية. إضافة إلى ذلك، أخذ على بعض الدراسات الأنثروبولوجية ارتباطها بالسياق الاستعماري واستفادتها من المعارف المنتجة حول الشعوب الخاضعة للاستعمار.

ومع ذلك، تبقى المدرسة البريطانية إحدى أهم المحطات المؤسسة للأنثروبولوجيا الحديثة، لما قدمته من مفاهيم ونظريات ومناهج ساهمت في ترسيخ هذا العلم وتطوير أدواته البحثية، خاصة في مجال العمل الميداني والدراسة المقارنة للثقافات الإنسانية.

ارتبطت المدرسة البريطانية بالسياق الاستعماري والتوسع الإمبراطوري خلال القرن التاسع عشر، حيث ساهم الاحتكاك المباشر بالشعوب المستعمرة في إفريقيا وآسيا في توفير مادة غنية للدراسة الأنثروبولوجية (Asad, 1973). وقد تميزت هذه المدرسة في بداياتها بالاتجاه التطوري الذي سعى إلى تفسير تطور المجتمعات الإنسانية عبر مراحل متدرجة.

يعد إدوارد برنت تايلور (Edward B. Tylor) من أبرز روادها، وقد قدم تعريفاً كلاسيكياً للثقافة باعتبارها ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات (Tylor, 1871). كما افترض أن المجتمعات تمر بمراحل تطورية تبدأ من البساطة نحو التعقيد والحضارة.

كما برز جيمس جورج فريزر (James G. Frazer) من خلال دراساته حول السحر والدين، خاصة في كتابه *The Golden Bough*، حيث اعتبر

أن الفكر الإنساني تطور من السحر إلى الدين ثم إلى العلم (Frazer, 1890).

لاحقاً، شهدت المدرسة البريطانية تحولاً منهجياً مع برونيستلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski)، الذي أسس المنهج الوظيفي، مؤكداً على أهمية العمل الميداني والملاحظة بالمشاركة، واعتبار الثقافة نظاماً يهدف إلى تلبية حاجات الإنسان. (Malinowski, 1922)

وفي السياق نفسه، قدّم ألفرد رادكليف براون (A. R. Radcliffe-Brown) تصوراً بنيوياً وظيفياً ركز فيه على البنية الاجتماعية باعتبارها شبكة من العلاقات التي تضمن استقرار المجتمع واستمراره (Radcliffe-Brown, 1952).

ثانياً: المدرسة الأمريكية

ارتبطت المدرسة الأمريكية بشكل أساسي بأعمال فرانز بواس (Franz Boas)، الذي يُعتبر مؤسس الأنثروبولوجيا الأمريكية الحديثة. وقد انتقد النزعة التطورية، مؤكداً على مبدأ النسبية الثقافية، أي ضرورة فهم كل ثقافة في سياقها الخاص. (Boas, 1940)

ركزت هذه المدرسة على العمل الميداني الدقيق ودراسة الثقافات المحلية، خصوصاً ثقافات السكان الأصليين في أمريكا الشمالية، كما أولت اهتماماً كبيراً بالتاريخ الثقافي لكل مجتمع بدل البحث عن قوانين تطورية عامة.

ثانياً: المدرسة الأمريكية

ارتبطت المدرسة الأمريكية في الأنثروبولوجيا بشكل وثيق بأعمال فرانز بواس (Franz Boas)، الذي يُعتبر المؤسس الفعلي للأنثروبولوجيا الأمريكية الحديثة. وقد أسهم بواس في إحداث قطيعة إبستمولوجية مع

الاتجاه التطوري الذي هيمن على المدرسة البريطانية في القرن التاسع عشر، من خلال نقده لفكرة التطور الخطي والثابت للمجتمعات الإنسانية، مؤكداً أن كل ثقافة تُعد كياناً تاريخياً مستقلاً لا يمكن فهمه إلا ضمن سياقه الخاص. (Boas, 1911; Boas, 1940)

وقد أسس بواس لمبدأ محوري في الأنثروبولوجيا الحديثة، وهو مبدأ النسبية الثقافية، الذي يقوم على رفض إصدار أحكام قيمية على الثقافات الأخرى وفق معايير الثقافة الغربية، والدعوة إلى فهم كل ثقافة من داخل بنيتها الرمزية والاجتماعية. (Boas, 1940) وبهذا المعنى، تصبح الثقافة نظاماً خاصاً من القيم والمعاني لا يمكن قياسه بمعايير خارجية جاهزة.

إلى جانب ذلك، أولت المدرسة الأمريكية أهمية كبرى للبحث الميداني الدقيق (Fieldwork)، حيث اعتبرت أن المعرفة الأنثروبولوجية لا يمكن أن تُبنى في المكاتب، بل من خلال الملاحظة المباشرة والمعيشة الطويلة للمجتمعات المدروسة، خاصة لدى السكان الأصليين في أمريكا الشمالية. (Boas, 1920) وقد ساهم هذا التوجه في تأسيس تقليد إثنوغرافي قوي يعتمد على جمع البيانات التفصيلية بدل التعميمات النظرية الكبرى.

ومن بين أهم تلامذته البارزين نجد ألفريد كروبر (Alfred L. Kroeber)، الذي طور مفهوم "النمط الثقافي (Culture Pattern)"، مؤكداً أن الثقافة كيان كلي يتكون من عناصر مترابطة تاريخياً واجتماعياً. (Kroeber, 1923) كما نجد روث بندكت (Ruth Benedict)، التي قدمت في كتابها *أنماط الثقافة* تصوراً يرى أن لكل مجتمع "نمطاً ثقافياً" خاصاً يشكل شخصيته العامة. (Benedict, 1934)

أما مارغريت ميد (Margaret Mead)، فقد ركزت على دراسة التنشئة الاجتماعية ودور الثقافة في تشكيل السلوك الإنساني، خصوصاً لدى فئة

الشباب والمراهقين، حيث أبرزت أن الاختلافات السلوكية بين المجتمعات ليست بيولوجية بل ثقافية بالأساس. (Mead, 1928)

كما ساهمت المدرسة الأمريكية في تطوير ما يُعرف بالمنهج التاريخي الثقافي (Historical Particularism)، الذي يرفض البحث عن قوانين عامة ثابتة لتطور المجتمعات، ويؤكد بدلاً من ذلك على دراسة كل ثقافة في مسارها التاريخي الخاص. (Boas, 1940; Kroeber, 1923) وبذلك، أصبحت الثقافة تُفهم بوصفها نتاجاً تاريخياً فريداً لا يمكن اختزاله في نماذج تطويرية عامة.

وبهذا، فقد وضعت المدرسة الأمريكية أسس الأنثروبولوجيا الثقافية الحديثة من خلال التركيز على النسبية الثقافية، وأهمية العمل الميداني، والتحليل التاريخي للثقافات، مما جعلها أحد أهم التيارات التي أعادت تشكيل الفكر الأنثروبولوجي في القرن العشرين.

ثالثاً: المدرسة الفرنسية

تُعد المدرسة الفرنسية من المدارس التي ركزت على البعد السوسولوجي للظواهر الثقافية، وقد تأثرت بأعمال إميل دوركايم (Émile Durkheim)، الذي اعتبر الظواهر الاجتماعية "وقائع اجتماعية" يجب دراستها كأشياء مستقلة عن الوعي الفردي. (Durkheim, 1895)

ومن أبرز ممثلي الأنثروبولوجيا الفرنسية كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss)، مؤسس البنيوية في الأنثروبولوجيا، الذي ركز على دراسة البنى الذهنية العميقة في الأساطير وأنظمة القرابة، معتبراً أن الثقافة تعكس أنماطاً ذهنية كونية. (Lévi-Strauss, 1963)

المدرسة الفرنسية في الأنثروبولوجيا من المدارس التي أولت اهتماماً خاصاً بالبعد السوسولوجي للظواهر الثقافية، حيث انطلقت من التصور الذي يرى

أن الثقافة لا يمكن فصلها عن البنية الاجتماعية التي تنتجها. وقد تأثرت هذه المدرسة بشكل عميق بأعمال عالم الاجتماع إميل دوركايم (Émile Durkheim)، الذي وضع الأسس الأولى للسوسيولوجيا العلمية، من خلال تعريفه للظواهر الاجتماعية باعتبارها "وقائع اجتماعية" تتميز بكونها خارجية عن الأفراد ومُلزمة لهم، ويجب دراستها كأشياء مستقلة عن الوعي الفردي. (Durkheim, 1895).

وانطلاقاً من هذا التصور، ساهم دوركايم مع مارسيل موس (Marcel Mauss) في تطوير فهم أنثروبولوجي للظواهر الرمزية، خصوصاً من خلال دراستهما للهبة وتبادل الهدية، حيث تم تحليل العلاقات الاجتماعية باعتبارها أنظمة تبادل تُنتج التضامن الاجتماعي داخل الجماعات (Mauss, 1925). وقد شكل هذا العمل أساساً مهماً لفهم البنية الاجتماعية بوصفها شبكة من العلاقات الرمزية والاقتصادية والأخلاقية.

وفي تطور لاحق، برزت المدرسة البنيوية مع كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss)، الذي يُعد أحد أهم رواد الأنثروبولوجيا في القرن العشرين. فقد سعى إلى الكشف عن البنى الذهنية العميقة التي تنظم الفكر الإنساني، معتبراً أن الثقافة ليست مجرد سلوكيات سطحية، بل هي انعكاس لأنماط عقلية كونية تعمل بطريقة لاواعية (Lévi-Strauss, 1963).

وقد ركز ليفي شتراوس بشكل خاص على دراسة الأساطير وأنظمة القرابة، حيث رأى أن هذه الظواهر تتبع قواعد بنيوية ثابتة يمكن تحليلها عبر المقارنة بين الثقافات المختلفة. ووفقاً له، فإن العقل البشري يعمل من خلال ثنائيات متقابلة (مثل: طبيعة/ثقافة، حياة/موت)، وهي التي تشكل البنية الأساسية للفكر الرمزي الإنساني.

كما ساهمت المدرسة الفرنسية أيضاً من خلال أعمال بيير بورديو، الذي طور مفاهيم الحقل (Field) والهابيتوس (Habitus)، حيث حاول تفسير كيفية إعادة إنتاج البنيات الاجتماعية عبر الممارسات اليومية للأفراد، مع التأكيد على العلاقة الجدلية بين الفرد والبنية الاجتماعية (Bourdieu, 1977). وقد أسهم هذا التوجه في تقريب الأنثروبولوجيا من علم الاجتماع النقدي.

وبذلك، يمكن القول إن المدرسة الفرنسية قد تميزت بتركيزها على البنية الاجتماعية والرمزية للثقافة، مع اعتماد مقاربة تحليلية تهدف إلى الكشف عن القوانين العميقة التي تنظم التفكير والسلوك الإنساني، مما جعلها من أهم المدارس التي أثرت الفكر الأنثروبولوجي الحديث.

رابعاً: المدرسة الألمانية

تميزت المدرسة الألمانية في الأنثروبولوجيا بتركيزها الواضح على البعد التاريخي والثقافي في تفسير الظواهر الإنسانية، مع رفضها للمقاربات التطورية التبسيطية التي كانت تسعى إلى إخضاع الثقافات المختلفة لمسار خطي واحد من "التقدم الحضاري". فقد انطلقت هذه المدرسة من قناعة مفادها أن كل ثقافة ينبغي فهمها في سياقها التاريخي الخاص، باعتبارها نتاجاً لتراكمات وتجارب ومسارات تفاعلية فريدة لا يمكن تعميمها أو قياسها بمعايير واحدة. وفي هذا السياق، يُعد فيلهلم فونت (Wilhelm Wundt) من أبرز المؤسسين الفكريين الذين أسهموا في بلورة هذا الاتجاه، حيث امتد مشروعه من علم النفس التجريبي إلى ما يُعرف بـ **علم النفس الثقافي** (Völkerpsychologie)، الذي حاول من خلاله دراسة الظواهر العقلية الجمعية مثل اللغة والأسطورة والعادات بوصفها منتجات ثقافية تتشكل عبر التاريخ الاجتماعي وليس فقط عبر العمليات الفردية. (Wundt, 1912) وقد فتح هذا التوجه

المجال أمام فهم أعمق للعلاقة بين الفرد والثقافة، حيث يتم إدراك السلوك الإنساني باعتباره انعكاساً لبنية ثقافية وتاريخية ممتدة، وليس مجرد استجابة نفسية معزولة.

كما أسهمت المدرسة الألمانية بشكل غير مباشر في تطوير تصورات نظرية مهمة داخل الأنثروبولوجيا الثقافية، من أبرزها **نظرية الانتشار الثقافي (Diffusionism)**، التي ترى أن التشابهات بين الثقافات لا تعود بالضرورة إلى تطور مستقل ومتوازي، بل غالباً ما تُفسَّر من خلال عمليات التفاعل والاتصال التاريخي بين الشعوب وانتقال العناصر الثقافية من مجتمع إلى آخر عبر الهجرة والتجارة والاحتكاك الحضاري. وقد أكد عدد من الباحثين، مثل ألفريد كروبر (Alfred Kroeber)، على أهمية هذه المقاربة في تفسير انتشار السمات الثقافية، معتبراً أن فهم الثقافات لا يكتمل دون تتبع مسارات انتقالها التاريخية وشبكات التأثير المتبادل بينها. (Kroeber, 1948) وبذلك، أسهمت المدرسة الألمانية في ترسيخ منظور منهجي يزاوج بين التحليل التاريخي والدراسة الثقافية المقارنة، ويؤكد على الخصوصية الثقافية لكل مجتمع، في مقابل النزعات التعميمية التي ميزت بعض المدارس الأنثروبولوجية الأخرى.

تُعد المدرسة الألمانية في الأنثروبولوجيا من المدارس التي اتسمت بنزعة تاريخية وثقافية واضحة، حيث ركزت على فهم الظواهر الثقافية في سياقها التاريخي الخاص، مع رفض التعميمات التطورية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. وقد انطلقت هذه المدرسة من فكرة أساسية مفادها أن كل ثقافة تمتلك مساراً تاريخياً فريداً لا يمكن اختزاله في نموذج تطوري واحد شامل. (Stocking, 1982)

وقد تأثرت المدرسة الألمانية بشكل كبير بأعمال فيلهلم فوننت (Wilhelm Wundt)، الذي يُعد من مؤسسي علم النفس الحديث، حيث طور ما يُعرف

بـ"علم النفس الثقافي"، الذي يهدف إلى دراسة الظواهر الذهنية الجماعية مثل اللغة والأسطورة والعادات باعتبارها نتاجاً تاريخياً وثقافياً مشتركاً (Wundt, 1912) وقد ساهم هذا التوجه في نقل الاهتمام من الفرد إلى الجماعة بوصفها وحدة تحليل أساسية.

كما برز أدولف باستيان (Adolf Bastian) ، الذي يُعد من أوائل الأنثروبولوجيين الألمان، حيث طرح فكرة "الوحدات الذهنية الأساسية" (Elementary Ideas)، والتي تفترض أن البشر يشتركون في أنماط فكرية أولية، لكنها تتجلى بشكل مختلف تبعاً للبيئة والثقافة (Bastian, 1881) وقد شكل هذا التصور محاولة مبكرة للتوفيق بين وحدة النفس البشرية وتنوع الثقافات.

ومن الاتجاهات المهمة أيضاً داخل المدرسة الألمانية، نظرية الانتشار الثقافي (Diffusionism) ، التي ترى أن التشابه بين الثقافات لا يعود إلى تطور مستقل متشابه، بل إلى انتقال العناصر الثقافية عبر الهجرة والاتصال بين الشعوب. وقد تبنى هذا الاتجاه عدد من الباحثين الألمان مثل فريتز غرايبنر (Fritz Graebner) ، الذي ركز على تحليل "دوائر الثقافة" (Kulturkreise) لتفسير انتشار العناصر الثقافية عبر التاريخ (Graebner, 1911).

كما ساهمت المدرسة الألمانية في تعزيز المنهج التاريخي المقارن، حيث ركزت على دراسة كل ظاهرة ثقافية ضمن سياقها التاريخي الخاص، مع رفض فكرة القوانين العامة الثابتة التي تسعى إلى تفسير جميع المجتمعات بنفس الطريقة. وبهذا المعنى، كانت هذه المدرسة أقرب إلى فهم الثقافة بوصفها نتاجاً تاريخياً مترابطاً ومعقداً، يتشكل عبر التفاعل بين البيئة والتاريخ والاتصال الثقافي.

وقد ساعد هذا التوجه على إغناء الأنثروبولوجيا بمقاربة نقدية للتعميمات التطورية، كما مهد لاحقاً لظهور اتجاهات حديثة في دراسة الثقافة تركز على الخصوصية التاريخية والتعددية الثقافية.

خاتمة

يتبين من خلال استعراض المدارس الأنثروبولوجية أن هذا العلم لم يتشكل في إطار واحد، بل تطور عبر مسارات فكرية متعددة تعكس اختلاف السياقات التاريخية والثقافية والسياسية. فبين النزعة التطورية في المدرسة البريطانية، والنسبية الثقافية في المدرسة الأمريكية، والبنوية في المدرسة الفرنسية، والتاريخية في المدرسة الألمانية، تشكلت الأنثروبولوجيا كعلم متعدد المناهج يسعى إلى فهم الإنسان في شموليته وتعقيده.

المراجع:

- Asad, T. (1973). *Anthropology and the colonial encounter*. Ithaca Press.
- Barnard, A. (2000). *History and theory in anthropology*. Cambridge University Press.
- Boas, F. (1940). *Race, language and culture*. University of Chicago Press.
- Durkheim, E. (1895). *The rules of sociological method*.
- Eriksen, T. H. (2001). *Small places, large issues*. Pluto Press.
- Frazer, J. G. (1890). *The golden bough*.
- Giddens, A. (1993). *Sociology*. Polity Press.

Kroeber, A. L. (1948). *Anthropology*. Harcourt •
Brace.

Lévi-Strauss, C. (1963). *Structural anthropology*. •

Malinowski, B. (1922). *Argonauts of the Western* •
Pacific.

Radcliffe-Brown, A. R. (1952). *Structure and* •
function in primitive society.

Tylor, E. B. (1871). *Primitive culture*. •

• علي، حسين. (2006). (المرجع المذكور في النص).

• فهيم، حسين. (1986). (المرجع المذكور في النص).

مراجع أجنبية:

Boas, F. (1911). *The mind of primitive man*. New York,
NY: Macmillan.

Durkheim, E. (1912). *The elementary forms of religious*
life. Paris: Alcan.

Eriksen, T. H. (2015). *Small places, large issues: An*
introduction to cultural anthropology (3rd ed.). London:
Pluto Press.

Geertz, C. (1973). *The interpretation of cultures*. New
York, NY: Basic Books.

Lévi-Strauss, C. (1963). *Structural anthropology*. New
York, NY: Basic Books.

Malinowski, B. (1922). *Argonauts of the Western*
Pacific. London: Routledge.

Mauss, M. (1925). *The gift: Forms and functions of*

exchange in archaic societies. London: Cohen & West.
Mead, M. (1928). *Coming of age in Samoa*. New York, NY: William Morrow.
Stocking, G. W. (1991). *After Tylor: British social anthropology, 1888–1951*. Madison, WI: University of Wisconsin Press.

مراجع عربية:

الغذامي، ع. (2005). *مدخل إلى الأنثروبولوجيا الثقافية*. الرياض: دار الفكر العربي.
عكاشة، ح. (2008). *الأنثروبولوجيا والعلاقات الاجتماعية*. القاهرة: دار الثقافة الحديثة.
بن ناصر، س.، & المقدم، ف. (2014). *القيم الثقافية والتحول الاجتماعي*. عمان: دار الفارابي.
الحكيم، أ. (2011). *الطقوس والرموز في المجتمعات العربية*. بيروت: المركز الثقافي العربي.
كرام، ع. ك. (2016). *الرمز والمعنى في الاجتماع العربي*. الدار البيضاء: منشورات الجامعة.
إبراهيم، ع. و. (2013). *تاريخ الفكر الاجتماعي العربي*. القاهرة: مكتبة الأجيال.
الجميل، م. ع. (2017). *الأنثروبولوجيا والعمل الميداني*. عمان: دار الكتاب الجامعي.

حسين علي - الميتافيزيقيا والعلم ، دار قباء للطباعة والنشر و التوزيع ،
القاهرة ، 2006
حسين فيهم ، قصة الانثروبولوجيا ، عالم المعرفة ، العدد 98 ، الكويت
-1986

المحاضرة رقم 03 : طبيعة الانثروبولوجيا

تتميز الأنثروبولوجيا بطبيعة وصفية تأويلية في آنٍ واحد؛ فهي تبدأ بوصف دقيق للحياة الاجتماعية، لكنها لا تتوقف عند الوصف، بل تتجاوزه إلى التأويل وفهم المعاني التي تحكم السلوك. إنها علم يعتمد العمل الميداني الطويل بوصفه شرطاً أساسياً لإنتاج معرفة علمية دقيقة، حيث يقيم الباحث داخل المجتمع المدروس لفترة زمنية ممتدة، يتعلم لغته، ويشترك أفراده أنشطتهم، ويكتسب ثقافتهم.

وترتكز الأنثروبولوجيا على تقنية الملاحظة بالمشاركة، التي تُمكن الباحث من فهم الظواهر من الداخل، أي من منظور الفاعلين أنفسهم، لا من خلال إسقاط تصورات خارجية جاهزة. فالفهم من الداخل يعني إدراك المنطق الثقافي الذي يوجه السلوك، واستيعاب الخلفيات الرمزية التي تمنحه معناه.

تركز المدرسة الانجلوساكسونية في موضوع دراسة علم الأنثروبولوجيا :على كونه " علم الإنسان وأعماله " بينما المفهوم ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالإنجليزية، نجده نركز على " دراسة الخصائص الجسمية للإنسان". ففي إنجلترا ، يطلق مصطلح الانثروبولوجيا، على دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية، مع ميل خاص للتأكيد على دراسة الشعوب البدائية. أمّا في أمريكا، فيرى العلماء أنّ الانثروبولوجيا، هي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة، في حين أنّ المدرسة الفرنسية ، ترى فيه موضوعاً لدراسة الإنسان من الناحية الطبيعية، أي "العضوية" .

استعانت الأنثروبولوجيا،بجملة من المعارف التي سبقتها اليها المعرفة الانسانية على غرار الفلسفة ومختلف العلوم الاجتماعية والانسانية وبالمقابل استطاعت آليات المناهج البحثية التي وفرتها المعرفة الانثروبولوجية المتخصصة من استحداث نظريات ومعارف ساهمت في تطوّر العلوم الاجتماعية..

حددت الباحثة الأمريكية "مارغريت ميد" طبيعة علم الأنثروبولوجيا وأبعاده، : " إننا نصنّف الخصائص الإنسانية للجنس البشري (البيولوجية والثقافية) كأساق مترابطة ومتغيّرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطوّرة. كما نهتمّ أيضاً بوصف النظم الاجتماعية والثقافية وتحليلها، إضافة إلى البحث في الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته

ومعتقداته ووسائل اتصالاته. وبصفة عامة، نسعى – نحن الأنثروبولوجيين – لتفسير نتائج دراساتنا والربط فيما بينها في إطار نظريات التطور، أو ضمن مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر.....".

باختصار فإن الأنثروبولوجيا هو علم وصفي تأويلي يعتمد العمل الميداني الطويل ويرتكز على الملاحظة بالمشاركة ويسعى لفهم الظواهر من الداخل.

أهداف الدراسات الأنثروبولوجية:

أهداف الدراسات الأنثروبولوجية:

تهدف الدراسات الأنثروبولوجية إلى تحقيق جملة من الأهداف العلمية والمعرفية، من أبرزها:

1- وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفاً دقيقاً، وذلك عن طريق معايشة الباحث المجموعة أو الجماعة المدروسة، وتسجيل كل ما يقوم به أفرادها من سلوكيات في تعاملهم، في الحياة اليومي من خلال الوصف الدقيق للحياة اليومية وعبر تسجيل تفاصيل الممارسات الاجتماعية في سياقها الطبيعي دون اختزال أو تعميم مفرط.

2- تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية بعد دراستها دراسة ميدانية، مع مراعاة سياق ترتيب التطور الحضاري الذي عرفه الإنسان : (بدائي- زراعي- صناعي - معرفي- تكنولوجي).

3- تحديد ملامح التغيير الاجتماعي الذي يمر حياة الناس والجماعات وأسباب هذا التغيير وعملياته بدقة علمية ونتائجه .. وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وتحديد عناصر التغيير الطارئة. وفهم التغيير الاجتماعي: من خلال تحليل التحولات التي

تمس البنى الثقافية، ورصد التفاعلات بين المحلي والعالمي، التقليدي والحديث

4- استنتاج المؤشرات والتوقعات لاتجاه التغيير المحتمل، في الظواهر الإنسانية / الحضارية التي تتم دراستها، وبالتصوّر بالتالي لإمكانية التنبؤ بجوانب من مستقبل الجماعة البشرية. واستشراف الاتجاهات المستقبلية للتحول الثقافي: عبر قراءة المؤشرات الاجتماعية والرمزية التي قد تعكس مسارات التحول في المجتمعات.

5- تفسير أنساق المعنى داخل الجماعات: أي فهم القيم والمعتقدات والرموز التي تشكل الإطار المرجعي للسلوك الاجتماعي.

وبذلك تمثل الأنثروبولوجيا علماً استكشافياً عميقاً للإنسان في كليته، يجمع بين الحس الميداني، والصرامة المنهجية، والقدرة التأويلية، ويؤسس لفهم مركب للثقافة بوصفها أفقاً شاملاً يشكل الوجود الإنساني. فهي اذم تهدف الى الوصف الدقيق للحياة اليومية. وتفسير أنساق المعنى داخل الجماعات. وفهم التميز الاجتماعي. واستشراف الاتجاهات المستقبلية للتحول الثقافي.

من جهة أخرى مثل موضوع التباين العرقي بين بني البشر، الخاصة البيولوجية التي تستأثر باهتمام الباحث الانثروبولوجي خصوصاً في بدايات ظهور هذا الحقل المعرفي،. ويمكن تسجيل عدة محاولات بحثية جادة للتوصل إلى تصنيف عرقي. فكان من نتائج انشغال علماء الأنثروبولوجيا الجسمية بمشكلة العرق، أن اكتسب مفهوم النوع (العرق) رسوخاً أعاق التفكير بالكائن البشري ذاته.

المحاضرة 04: علاقة الانثروبولوجيا بباقي مجالات المعرفة الإنسانية :

انطلاقاً من ان الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان من جوانب بيوفيزيائية واجتماعية وثقافية، وهي تمثل بذلك علماً شاملاً تتقاطع تشابك فيه مجالات المعرفة في ميادين ومجالات متباينة ومختلفة ، من علم التشريح الى علم تاريخ تطوّر الجنس البشري والجماعات العرقية، الى دراسة النظم الاجتماعية من سياسيّة واقتصادية ودينية وقانونية، وكذلك البحث في موضوع الإبداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنوّعة التي تشمل التراث الفكري وأنماط القيم وأنساق الفكر والإبداع الأدبي والفني، بل والعادات والتقاليد ومظاهر السلوك في المجتمعات الإنسانية المختلفة.

مقاربة إبستمولوجية في التداخل المعرفي بين العلوم الإنسانية:

تعد الأنثروبولوجيا من العلوم الإنسانية التي تهدف إلى دراسة الإنسان في أبعاده البيولوجية والاجتماعية والثقافية، حيث تسعى إلى فهم أنماط الحياة البشرية والأنظمة الرمزية التي تنتجها المجتمعات المختلفة. وقد تطورت الأنثروبولوجيا منذ نشأتها في القرن التاسع عشر في إطار تفاعل معرفي

مستمر مع العديد من العلوم مثل علم الاجتماع، وعلم النفس، والتاريخ، والجغرافيا، والعلوم السياسية، إضافة إلى علوم الإعلام والاتصال.

إن دراسة الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً وثقافياً معقداً تتطلب مقاربة متعددة التخصصات، وهو ما أدى إلى بروز مفهوم التداخل المعرفي بين العلوم الذي أصبح سمة أساسية في البحث العلمي المعاصر. فالقضايا الإنسانية الكبرى مثل الثقافة والهوية والتواصل والسلطة لا يمكن فهمها من خلال تخصص واحد فقط، بل تتطلب تفاعلاً بين مختلف الحقول المعرفية (Klein, 2010).

كما يؤكد العديد من الباحثين العرب أن الأنثروبولوجيا تعد من أكثر العلوم انفتاحاً على التخصصات الأخرى، نظراً لطبيعة موضوعها الذي يتمثل في دراسة الإنسان والمجتمع في مختلف أبعادهما (الجوهري، 2010).

أولاً: الإطار النظري الإستمولوجي للتداخل المعرفي في العلوم الإنسانية

شهدت العلوم الإنسانية خلال العقود الأخيرة تحولات إستمولوجية مهمة تمثلت في الانتقال من النماذج التخصصية المغلقة إلى المقاربات متعددة التخصصات. ويعود ذلك إلى تعقيد الظواهر الاجتماعية والثقافية التي لا يمكن تفسيرها من خلال منظور علمي واحد.

وتعرّف الباحثة جولي تومسون كلاين التداخل المعرفي بأنه عملية دمج مفاهيم ومناهج من تخصصات مختلفة بهدف فهم ظاهرة معقدة لا يمكن تفسيرها ضمن حدود تخصص واحد. (Klein, 2010)

كما يرى المفكر إدغار موران أن المعرفة المعاصرة تتجه نحو ما يسميه الفكر المركب، الذي يقوم على تجاوز الحدود الصارمة بين العلوم، لأن الواقع الاجتماعي نفسه مركب ومتداخل. (Morin, 2008)

وفي السياق العربي، يشير محمد الجوهري إلى أن الأنثروبولوجيا علم يتميز بطبيعته التداخلية، إذ يجمع بين عناصر من علم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس من أجل تقديم فهم شامل للثقافة الإنسانية (الجوهري، 2010).

ثانياً: العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع

تُعد العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع من أكثر العلاقات العلمية تقارباً في مجال العلوم الاجتماعية. فكلا التخصصين يهتم بدراسة المجتمع والعلاقات الاجتماعية والأنماط الثقافية.

وقد نشأ علم الاجتماع أساساً لدراسة المجتمعات الصناعية الحديثة، بينما ركزت الأنثروبولوجيا في بداياتها على دراسة المجتمعات التقليدية

غير أن التطور المعاصر للعلوم الاجتماعية أدى إلى تقارب كبير بين التخصصين، خاصة مع ظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية التي تعتمد على التحليل السوسيولوجي للبنى الاجتماعية والأنظمة الثقافية داخل المجتمع (Eriksen, 2015).

ويشير بعض الباحثين العرب إلى أن الفرق بين التخصصين لا يكمن في الموضوع بقدر ما يكمن في المنهج، حيث تعتمد الأنثروبولوجيا بشكل أكبر على العمل الميداني والدراسة الإثنوغرافية.

ثالثاً: العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس

ترتبط الأنثروبولوجيا بعلاقة وثيقة ومركبة مع علم النفس، انطلاقاً من اهتمامهما المشترك بدراسة السلوك الإنساني وفهم آليات تشكله وتفسيره، غير أن هذا الاهتمام يتخذ اتجاهين مختلفين من حيث الزاوية التحليلية ومستوى الاشتغال. فبينما يركز علم النفس أساساً على دراسة العمليات العقلية الداخلية للفرد، مثل الإدراك والانفعال

والدافعية والذاكرة، محاولاً تفسير السلوك بوصفه نتاجاً لبنية نفسية فردية، تتجه الأنثروبولوجيا إلى دراسة السلوك ذاته داخل سياقه الأوسع، أي ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي الذي يتشكل فيه، حيث لا يُفهم الفعل الإنساني إلا باعتباره جزءاً من نسق ثقافي يحدد معانيه ودلالاته ووظائفه داخل الجماعة. ومن هذا المنظور، يصبح السلوك الإنساني نتيجة تفاعل معقد بين البنية النفسية للفرد والبنية الثقافية للمجتمع، وليس مجرد انعكاس لعوامل داخلية معزولة.

وقد أدى هذا التقاطع المعرفي بين الحقلين إلى بروز مجال تخصصي وسيط يُعرف بـ **الأنثروبولوجيا النفسية (Psychological Anthropology)** ، والذي يسعى إلى بناء جسر تفسيري بين الثقافة والشخصية، من خلال دراسة الكيفية التي تسهم بها أنماط التنشئة الاجتماعية والقيم والمعايير الثقافية في تشكيل البنى النفسية للأفراد، وفي المقابل تحليل كيفية إعادة إنتاج الأفراد لثقافتهم عبر سلوكياتهم وتصوراتهم وانفعالاتهم. ويهتم هذا المجال أيضاً بفهم التباينات الثقافية في أنماط الشخصية، وكيف تؤثر البيئات الاجتماعية المختلفة في تشكيل أنماط التفكير والشعور والتصرف.

وفي السياق ذاته، تؤكد العديد من الدراسات العربية المعاصرة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا أن السلوك الإنساني لا يمكن تفسيره أو فهمه بصورة مكتملة إذا عُزل عن سياقه الثقافي والاجتماعي، إذ إن المعاني التي يحملها الفعل الإنساني تتحدد داخل المنظومة الرمزية والقيمية للمجتمع الذي ينتمي إليه الفرد. وبناءً على ذلك، تُعد الأنثروبولوجيا مكماً أساسياً لعلم النفس، لأنها توسع مجال الفهم من المستوى الفردي الضيق إلى المستوى الثقافي الواسع، بما يسمح بتفسير أكثر شمولاً للسلوك الإنساني في تعدد تجلياته واختلاف سياقاته الاجتماعية والثقافية.

رابعاً: العلاقة بين الأنثروبولوجيا والتاريخ

ترتبط الأنثروبولوجيا بعلاقة وثيقة ومتكاملة مع علم التاريخ، باعتبار أن كلا التخصصين ينشغل بدراسة الإنسان في أبعاده الممتدة عبر الزمن، سواء من حيث تتبع تحولات المجتمعات أو فهم تشكل البنى الثقافية والاجتماعية في سياقاتها المختلفة. غير أن هذه العلاقة تقوم على اختلاف منهجي واضح؛ إذ يعتمد علم التاريخ أساساً على تحليل الوثائق المكتوبة والمصادر الأرشيفية والشهادات المادية لإعادة بناء الأحداث والوقائع الماضية وفق تسلسل زمني دقيق، في حين تعتمد الأنثروبولوجيا على الملاحظة المباشرة والدراسة الميدانية والإثنوغرافية، مع التركيز على فهم المعاني التي تمنحها الجماعات الإنسانية لممارساتها اليومية داخل سياقاتها الحية والمعاصرة. وبذلك، فإن المؤرخ ينظر إلى الماضي عبر ما تبقى من آثاره المكتوبة والمادية، بينما يسعى الأنثروبولوجي إلى فهم الحاضر من خلال المعيشة والملاحظة وفك شفرات الممارسة الاجتماعية والثقافية.

وقد أدى هذا التفاعل بين المنهجين التاريخي والأنثروبولوجي إلى نشوء حقل معرفي وسيط يُعرف بـ **الأنثروبولوجيا التاريخية**، والذي يهدف إلى دمج التحليل التاريخي بالسياق الثقافي لفهم الظواهر الاجتماعية والثقافية في امتدادها الزمني، من خلال دراسة كيفية تشكل الممارسات والمؤسسات والمعتقدات عبر الزمن، وكيفية استمرارها أو تحولها أو إعادة إنتاجها داخل المجتمعات. ويتيح هذا التداخل المنهجي تجاوز الفصل التقليدي بين "الماضي" و"الحاضر"، من خلال النظر إلى الظواهر الثقافية بوصفها عمليات ديناميكية تتغير عبر الزمن ولكنها تحتفظ بامتدادات رمزية ومعنوية في الذاكرة الجماعية.

وفي هذا السياق، يؤكد عدد من الباحثين العرب على أن الجمع بين المنهج التاريخي والمنهج الأنثروبولوجي يتيح فهماً أعمق وأكثر شمولية للتحويلات الاجتماعية والثقافية داخل المجتمعات، إذ يسمح التاريخ بإطار زمني يفسر التغير، بينما توفر الأنثروبولوجيا أدوات تحليلية دقيقة لفهم المعاني والسلوكيات داخل الواقع المعيش. ووفق هذا التصور، لا يمكن فهم البنى الاجتماعية أو الثقافية في بعدها الراهن دون استحضار جذورها التاريخية، كما لا يمكن تفسير الوثيقة التاريخية بمعزل عن سياقها الثقافي والرمزي الذي أنتجها، وهو ما يجعل التكامل بين الحقلين شرطاً أساسياً لإنتاج معرفة علمية أكثر عمقاً وتفسيراً للظواهر الإنسانية (الخولي، 2009).

خامساً: العلاقة بين الأنثروبولوجيا والجغرافيا

ترتبط الأنثروبولوجيا بعلاقة وثيقة ومتكاملة مع الجغرافيا، انطلاقاً من اهتمامهما المشترك بدراسة العلاقة التفاعلية بين الإنسان وبيئته الطبيعية والمجالية، باعتبار أن الفضاء الجغرافي لا يُعد مجرد إطار مادي محايد، بل عنصراً فاعلاً في تشكيل أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للجماعات الإنسانية. فالمجال الجغرافي بما يتضمنه من تضاريس ومناخ وموارد طبيعية يساهم بشكل مباشر في توجيه أنماط الاستقرار والهجرة، وأنظمة الإنتاج والمعيشة، بل وحتى في تشكيل البنى الثقافية والرمزية التي تطبع هوية المجتمعات المحلية.

وقد أفضى هذا التقاطع بين الحقلين إلى بروز مجال معرفي متخصص يُعرف بـ الأنثروبولوجيا البيئية، الذي يهتم بدراسة كيفية تفاعل الإنسان مع بيئته الطبيعية، وآليات التكيف التي تطورها المجتمعات لمواجهة تحديات البيئة واستثمار مواردها، سواء من خلال أنماط العيش التقليدية أو من خلال التحويلات التي تفرضها التغيرات البيئية والاقتصادية والتكنولوجية. كما يركز هذا المجال على فهم العلاقة الديناميكية

بين الثقافة والنظام البيئي، وكيف تسهم الممارسات الثقافية في إعادة تشكيل البيئة ذاتها، في إطار علاقة تبادلية لا يمكن اختزالها في اتجاه واحد.

تؤكد العديد من الدراسات الأنثروبولوجية أن البيئة الطبيعية تلعب دورًا محوريًا في تشكيل الثقافة المحلية وأنماط العيش داخل المجتمعات المختلفة، حيث تؤثر الخصائص البيئية في تنظيم العلاقات الاجتماعية، وتقسيم العمل، وأنماط السكن، وأنظمة القيم والمعايير المرتبطة بالموارد الطبيعية واستغلالها. ومن ثم، فإن فهم الظواهر الثقافية والاجتماعية لا يكتمل إلا من خلال تحليل السياق البيئي الذي تتشكل داخله، وهو ما يجعل من البعد الجغرافي عنصرًا أساسيًا في التحليل الأنثروبولوجي للثقافات والمجتمعات (الجوهري، 2010).

سادساً: العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم السياسية

تتقاطع الأنثروبولوجيا مع العلوم السياسية تقاطعًا وثيقًا من خلال اهتمامهما المشترك بدراسة السلطة وآليات تنظيمها داخل المجتمعات الإنسانية، غير أن هذا الاهتمام يتخذ في كل حقل زاوية تحليلية مختلفة؛ إذ تشغل العلوم السياسية أساسًا بدراسة المؤسسات السياسية الرسمية، وأنماط الحكم، والدولة، والأنظمة الدستورية، وآليات اتخاذ القرار وتوزيع السلطة داخل البنى السياسية المعاصرة، بينما تتجه الأنثروبولوجيا إلى تحليل السلطة في أشكالها غير الرسمية والرمزية، من خلال فهم كيف تتجلى السلطة في الحياة اليومية، وفي البنى الاجتماعية التقليدية، وفي العلاقات الثقافية التي تنظم التفاعل بين الأفراد والجماعات.

وقد أولى الأنثروبولوجيون اهتمامًا خاصًا بدراسة أشكال السلطة في المجتمعات التقليدية والقبلية، حيث لا تتجسد السلطة بالضرورة في مؤسسات دولة مركزية، بل تتوزع عبر أنماط متعددة مثل الزعامة القبلية، والهيمنة الرمزية، والسلطة الدينية،

والشرعية المستمدة من العرف والتقاليد. كما ركزت هذه الدراسات على فهم الكيفية التي تُبنى بها شرعية القيادة داخل الجماعات، وكيف تُمارس السلطة من خلال الرموز والخطاب الديني والطقوس الاجتماعية، وليس فقط عبر القوة المادية أو القانونية. ومن هذا المنظور، تصبح السلطة ممارسة ثقافية واجتماعية بقدر ما هي بنية سياسية، تتشكل داخل شبكة معقدة من العلاقات والمعاني والقيم.

وقد أدى هذا الاهتمام إلى بروز مجال تخصصي يُعرف بـ الأنثروبولوجيا السياسية، الذي يسعى إلى تحليل العلاقة بين الثقافة والسلطة داخل المجتمعات، من خلال دراسة أنماط التنظيم السياسي في السياقات المختلفة، سواء في المجتمعات التقليدية أو الحديثة، وفهم كيفية إنتاج السلطة وإعادة إنتاجها داخل البنى الاجتماعية. ويهتم هذا الحقل أيضًا بكيفية اشتغال الرموز السياسية والخطابات الأيديولوجية في تشكيل الوعي الجمعي، وكيف تُمارس السلطة عبر المؤسسات الرسمية وغير الرسمية على حد سواء. وقد أسهمت أعمال بيير بالاندييه (Balandier, 1967) بشكل بارز في ترسيخ هذا التوجه، من خلال إبراز الطبيعة الديناميكية للسلطة وارتباطها العميق بالبنى الثقافية والاجتماعية، بدل اختزالها في بعدها المؤسسي أو القانوني فقط.

سابعاً: العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلوم الإعلام والاتصال

مع التحولات العميقة التي أحدثتها وسائل الإعلام الحديثة وتطور تقنيات الاتصال الرقمي، أصبحت العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلوم الإعلام والاتصال أكثر وضوحًا وعمقًا، حيث لم تعد وسائل الإعلام مجرد أدوات لنقل المعلومات، بل تحولت إلى فضاءات مركزية لإنتاج المعاني الثقافية وإعادة تشكيل الهويات الاجتماعية وتوجيه أنماط التفاعل داخل المجتمع. فالممارسات الإعلامية المعاصرة، سواء في الوسائط التقليدية أو في المنصات الرقمية، أصبحت جزءًا من الحياة اليومية

للأفراد، تسهم في بناء تصوراتهم عن الذات والآخر، وتعيد صياغة العلاقات الاجتماعية ضمن سياقات ثقافية ورمزية معقدة.

وقد أدى هذا التقاطع إلى بروز مجال معرفي يُعرف بـ **أنثروبولوجيا الإعلام**، الذي يهتم بدراسة الممارسات الثقافية والاجتماعية المرتبطة بوسائل الاتصال المختلفة، مع التركيز على الكيفية التي تُنتج بها الوسائط الإعلامية المعاني، وتعيد من خلالها تشكيل البنى الثقافية والهويات الجماعية داخل المجتمعات المعاصرة (Couldry, 2012). كما أتاح هذا المجال إمكانية توظيف المناهج الإثنوغرافية لدراسة سلوك الجمهور داخل البيئات الرقمية، من خلال تحليل أنماط الاستخدام والتفاعل والتلقي التي يمارسها المستخدمون داخل شبكات التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية، بما يسمح بفهم أعمق للديناميكيات الاجتماعية والثقافية التي تحكم الفضاء الإعلامي الجديد.

وفي هذا السياق، يشير عدد من الباحثين العرب إلى أن المقاربة الأنثروبولوجية تسهم بشكل فعال في فهم العلاقة بين الإعلام والثقافة، من خلال تحليل الرموز والمعاني والدلالات التي تنتجها الوسائط الإعلامية داخل المجتمع، والكشف عن البنى الثقافية الكامنة خلف الخطابات الإعلامية والممارسات الاتصالية (عبد الغني، 2014). ومن ثم، فإن دراسة الإعلام لا تقتصر على تحليل المحتوى أو البنى التقنية فحسب، بل تمتد إلى فهم السياقات الاجتماعية والثقافية التي تُنتج داخله المعاني وتُعاد عبره صياغة الهويات والعلاقات الاجتماعية.

ورغم أن عملية الاتصال بمختلف أشكالها وسياقاتها ارتبطت منذ القدم بوجود الإنسان ككائن اجتماعي، إلا أن الدراسات الكلاسيكية في العلوم الإنسانية والاجتماعية لم تُول هذا البعد الاهتمام الكافي من منظور تكاملي شامل، وهو ما أدى

إلى غياب رؤية منهجية متماسكة لفهم هذه العملية الحيوية في أبعادها الثقافية والاجتماعية والرمزية. وقد بدأ الاهتمام العلمي المنظم بظاهرة الاتصال يتبلور بشكل أوضح خلال النصف الثاني من القرن العشرين، مع تطور الاتجاهات النظرية الحديثة التي سعت إلى دراسة الاتصال ليس فقط كعملية تقنية أو إجرائية، بل كظاهرة ثقافية واجتماعية مركبة، وهو ما مهد لظهور مقاربات أنثروبولوجية وإثنوغرافية تهدف إلى فهم الاتصال بوصفه ممارسة إنسانية يومية تتشكل داخل سياقات اجتماعية وثقافية محددة.

خاتمة: يتضح من خلال هذا العرض أن الأنثروبولوجيا تتميز بطبيعتها التداخلية، حيث ترتبط بعلاقات معرفية وثيقة مع العديد من العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويعود ذلك إلى طبيعة موضوعها الأساسي وهو الإنسان، الذي يمثل ظاهرة معقدة ومتعددة الأبعاد.

وفي ظل التحولات الرقمية المعاصرة، أصبحت العلاقة بين الأنثروبولوجيا وعلوم الإعلام والاتصال أكثر أهمية، حيث توفر المقاربة الأنثروبولوجية أدوات منهجية لفهم الممارسات الثقافية التي تتشكل داخل البيئة الإعلامية والرقمية.

ومن هنا تبرز أهمية المقاربات متعددة التخصصات في البحث العلمي المعاصر من أجل فهم التحولات الاجتماعية والثقافية التي يشهدها العالم اليوم.

المحاضرة رقم 05 : بدايات دراسات الجمهور: من التأثير إلى التلقي النشط

أولاً: ظهور دراسات الجمهور

ارتبطت بدايات ظهور دراسات جمهور وسائل الإعلام الجماهيرية في العقد الثالث من القرن العشرين بسياق المنافسة الاقتصادية والسياسية بين المؤسسات في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، وكذلك بسياق إعلامي هيمن عليه الاعتقاد بقوة التأثير المباشر لوسائل الإعلام على سلوك

الجمهور وتوجيه آرائه وفق مصالح الجهات التي تتحكم في إدارتها. وقد ساهم هذا الوضع في ظهور مراكز بحث متخصصة تهدف إلى معرفة حجم الجمهور وسبر آرائه، ودراسة خصائصه الاجتماعية والنفسية، بغية استغلال نتائج هذه الدراسات في توجيه الاستراتيجيات التجارية والإعلانية والسياسية للمؤسسات الإعلامية والمعلنين ورجال السياسة والاقتصاد .

وفي هذا السياق المبكر، ارتبطت دراسات الجمهور بقياس التأثير الإعلامي وحجم الجمهور، حيث اعتمد الباحثون على أدوات كمية مثل الاستبيانات والدراسات المسحية وتحليل نسب المشاهدة والاستماع. وكان الجمهور يُنظر إليه في هذه المرحلة بوصفه كتلة متجانسة وسلبية تتلقى الرسائل الإعلامية بصورة مباشرة، وهو التصور الذي ارتبط بنظرية "الرصاصة السحرية" التي افترضت قدرة وسائل الإعلام على التأثير المباشر والقوي في الأفراد .

غير أن هذا التصور بدأ يتغير تدريجياً مع تطور بحوث الاتصال، حيث شهدت دراسات الجمهور تحولاً إستمولوجياً مهماً خلال القرن العشرين، انتقل فيه التفكير العلمي من تصور الجمهور ككتلة سلبية متلقية للتأثيرات الإعلامية إلى اعتباره فاعلاً اجتماعياً نشطاً يشارك في إنتاج المعنى. فقد أظهرت الدراسات اللاحقة أن الجمهور ليس مجرد مستقبل للرسائل الإعلامية، بل يتفاعل معها ويعيد تفسيرها وفق خبراته وسياقاته الاجتماعية والثقافية.

ثانياً: السياق الاجتماعي لعملية التلقي

أدى هذا التحول النظري إلى إعادة الاعتبار للسياق الاجتماعي بوصفه عاملاً أساسياً في فهم عملية التلقي الإعلامي. فالجمهور لا يتلقى الرسائل الإعلامية في فراغ، بل داخل فضاءات اجتماعية متعددة مثل الأسرة والعمل والجماعات الاجتماعية المختلفة. وفي هذه السياقات تتداخل عوامل عديدة

مثل الطبقة الاجتماعية والنوع الاجتماعي والانتماء الثقافي ومستوى التعليم في تشكيل أنماط التلقي والتأويل .

ومن هنا ظهرت أهمية دراسة الممارسات اليومية للجمهور مع وسائل الإعلام، وفهم كيفية إدماج الوسائط الإعلامية في الحياة اليومية للأفراد. وقد ساهم هذا التوجه في تطوير المقاربات الكيفية في دراسة الجمهور، خاصة المقاربة الاثنوغرافية التي تسعى إلى فهم المعاني الاجتماعية والثقافية المرتبطة باستخدام وسائل الإعلام داخل الحياة اليومية للأفراد والجماعات .

ثالثاً: نظرية الاستخدامات والإشباع

من بين أهم المقاربات التي ساهمت في تغيير النظرة إلى الجمهور داخل دراسات الإعلام والاتصال نجد نظرية الاستخدامات والإشباع، التي ظهرت في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين كرد فعل على النظريات التقليدية التي ركزت على تأثير وسائل الإعلام في الجمهور دون الاهتمام بدور هذا الأخير في اختيار الوسائل الإعلامية واستخدامها (عبد الحميد، 2004).

تنطلق هذه النظرية من فرضية أساسية مفادها أن الجمهور ليس سلبياً، بل هو جمهور نشط يقوم باختيار الوسائل الإعلامية التي تلبي حاجاته المختلفة. فالأفراد يستخدمون وسائل الإعلام لتحقيق مجموعة من الإشباعات مثل الحصول على المعلومات، والترفيه، وبناء الهوية الشخصية، وتعزيز العلاقات الاجتماعية، والهروب من ضغوط الحياة اليومية (شومان، 2010).

كما تفترض هذه النظرية أن عملية الاتصال ليست عملية أحادية الاتجاه من المرسل إلى المستقبل، بل هي عملية تفاعلية يكون فيها الجمهور فاعلاً

أساسياً يختار الرسائل الإعلامية ويحدد طريقة تلقيها وفق حاجاته النفسية والاجتماعية. ومن هنا أصبح الاهتمام موجهاً نحو دراسة دوافع استخدام وسائل الإعلام وأنماط التفاعل معها داخل الحياة اليومية (عبد الرحمن، 2011).

وقد ساهمت هذه النظرية في إعادة توجيه بحوث الجمهور نحو الاهتمام بالمتلقي بوصفه فاعلاً اجتماعياً يمتلك القدرة على الاختيار والتفسير، الأمر الذي فتح المجال أمام تطوير مقاربات بحثية جديدة تركز على الممارسات الثقافية للجمهور وعلى السياقات الاجتماعية لاستخدام وسائل الإعلام (العبد، 2013).

رابعاً: بدايات التوجه الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية

إذا كان التوجه الامبريقي الأمريكي في بحوث الاتصال الجماهيري قد تميز بتركيزه الكبير على المناهج الكمية، فإن التوجهات الجديدة في الدراسات الإعلامية بدأت تولي اهتماماً متزايداً لدور المتلقي في العملية الاتصالية ولمختلف التأويلات التي ينتجها من مضمون الخطاب الإعلامي. وقد ساهمت هذه التحولات في إدخال المقاربة الإثنوغرافية إلى مجال دراسات الإعلام، بعد أن كانت مرتبطة أساساً بالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع الثقافي (عبد الرحمن، 2011).

ومن أبرز الباحثين الذين ساهموا في تطوير هذا الاتجاه الباحث دافيد مولي الذي اعتمد المقاربة الإثنوغرافية في دراسة الجمهور التلفزيوني، حيث ركز في أبحاثه على تحليل أنماط مشاهدة التلفزيون داخل الأسرة بوصفها وحدة اجتماعية أساسية للتحليل. وقد سعى من خلال هذه الدراسات إلى فهم الكيفية التي يفسر بها أفراد العائلة المضامين الإعلامية وفق خلفياتهم الاجتماعية والثقافية المختلفة (مكاوي والسيد، 2009).

ومع تطور التكنولوجيات المنزلية وظهور وسائط إعلامية جديدة داخل الفضاء الأسري مثل الحاسوب والإنترنت والهواتف الذكية، تحول الاهتمام العلمي إلى دراسة السلوك الاتصالي للجمهور والتفاعلات الممكنة مع الرسائل الإعلامية التي يتلقاها. وقد ساهمت المقاربة الإثنوغرافية في تعميق فهم ظاهرة التلقي الإعلامي بوصفها ظاهرة اجتماعية وثقافية معقدة، إذ سمحت بدراسة الكيفية التي يتم بها إدماج الوسائط الإعلامية داخل الحياة اليومية للأسر وفهم الطرق التي تنظم بها العائلات استخدام هذه التكنولوجيات في إطار ممارساتها الاجتماعية والثقافية (شومان، 2010).

المراجع العربية :

عبد الحميد، محمد. (2004). نظريات الإعلام واتجاهات التأثير. القاهرة: عالم الكتب.

مكاوي، حسن عماد، والسيد، ليلي حسين. (2009). الاتصال ونظرياته المعاصرة. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

عبد الرحمن، عواطف عبد الرحمن. (2011). دراسات في الاتصال الجماهيري. القاهرة: دار الفكر العربي.

العبد، عاطف عدلي. (2013). الإعلام والجمهور: دراسات في الاتصال الجماهيري. القاهرة: دار الفكر العربي.

شومان، محمد. (2010). نظريات الإعلام المعاصر. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

المحاضرة رقم 06 : ماهية الإثنوغرافيا وأسسها النظرية

1- المفهوم والتطور التاريخي

الإثنوغرافيا ليست مجرد تقنية لجمع المعطيات، بل هي ممارسة معرفية تعتمد على الانغماس في العالم المعيش للفاعلين الاجتماعيين من أجل فهم أنساق المعنى التي تؤطر سلوكهم. وقد نشأت داخل الأنثروبولوجيا الكلاسيكية في سياق البحث عن فهم ثقافات "الآخر"، قبل أن تتحول تدريجياً

إلى منهج عابر للتخصصات يُستخدم في علم الاجتماع، ودراسات الإعلام والاتصال، والعلوم التربوية، ودراسات المنظمات (عبد الحميد، 2004؛ مكاي والسيد، 2009؛ الفقي، 2016).

ارتبط التأسيس المنهجي للإثنوغرافيا بأعمال بروني سلاف مالينوفسكي، الذي شدد على ضرورة الإقامة الطويلة في الميدان، وتعلم اللغة المحلية، والملاحظة بالمشاركة. غير أن هذا التأسيس لم يكن بريئاً من السياق الكولونيالي الذي نشأ فيه، مما دفع لاحقاً إلى بروز تيارات نقدية أعادت مساءلة موقع الباحث وعلاقته بالسلطة والمعرفة (العبد، 2013؛ عبد الله، 2018).

2- الأسس الإبستمولوجية:

تنتهي الإثنوغرافيا إلى البراديجم التفسيري الذي يرى أن الواقع الاجتماعي ليس معطى موضوعياً مستقلاً عن الفاعلين، بل يُبنى عبر التفاعل الرمزي والتأويل اليومي. ومن هنا تستند إلى مجموعة من الافتراضات:

- أن المعنى ينتج داخل السياق.
- أن الفاعلين الاجتماعيين يمتلكون قدرة تأويلية.
- أن الفهم يقتضي الاقتراب من التجربة المعيشة.
- أن المعرفة هي عملية حوارية بين الباحث والمبحوث (حسين، 2015؛ مصطفى، 2017).

وقد تأثرت الإثنوغرافيا بالأنثروبولوجيا الرمزية مع "كليفورد غيرتز" الذي دعا إلى "الوصف الكثيف"، أي تحليل الأفعال الاجتماعية بوصفها انساقاً دلالية معقدة، واستفادت من التفاعل الرمزي عند هربرت بلومر، ومن الفينومينولوجيا الاجتماعية عند ألفرد شوتز، حيث يُنظر إلى الحياة اليومية

باعتبارها عالماً من المعاني المشتركة (عبد الرحمن، 2011؛ عبد الكريم، 2019).

3- من الوصف إلى التأويل

لا تقتصر الإثنوغرافيا على تسجيل الوقائع، بل تسعى إلى تفكيك البنى الرمزية الكامنة وراءها. فالملاحظة ليست غاية في ذاتها، بل مدخل لبناء تفسير نظري. تمر العملية الإثنوغرافية عادةً بمراحل متداخلة:

1. الاندماج في الميدان وبناء الثقة.
2. إنتاج اليوميات الميدانية وتوثيق التفاصيل الدقيقة.
3. الترميز والتحليل الموضوعاتي.
4. بناء السرد الإثنوغرافي الذي يجمع بين الوصف والتحليل.

ويبرز هنا سؤال الكتابة الإثنوغرافية: هل النص مجرد نقل للواقع أم بناء سردي يعكس رؤية الباحث؟ لقد أبرزت تيارات "الكتابة الإثنوغرافية" أن النص ليس محايداً، بل هو تمثيل يخضع لاختيارات لغوية ومنهجية، ما يستدعي وعياً نقدياً بالذات الباحثة (شومان، 2010؛ الزهراني، 2020).

4- التموقع الذاتي والأخلاقيات

أحد أهم التحولات المعاصرة في الإثنوغرافيا هو الاعتراف بدور الذات الباحثة. لم يعد الباحث يُنظر إليه كفاعل محايد، بل كطرف يشارك في إنتاج المعنى، وهو ما يطرح قضايا أخلاقية ومنهجية، مثل: حدود المشاركة والتدخل. وحماية خصوصية المبحوثين. وإشكالية الموافقة المستنيرة. وتمثيل أصوات الفاعلين دون اختزال أو تشويه.

وفي السياقات العربية، تطرح التحديات البنية القرابية، والحساسيات الدينية، والعلاقات السلطوية المحلية، مما يفرض على الباحث تطوير حساسية ثقافية مضاعفة)

5- آفاق معاصرة

أصبحت تدمج أدوات تحليل الخطاب، والتحليل البصري، وتحليل الشبكات، ما يعكس مرونتها المنهجية، ومع ذلك يبقى جوهرها ثابتاً: فهم الإنسان داخل عالمه المعيش، عبر معاشة حقيقية، وإنصات عميق، وتحليل تأويلي نقدي شهدت الإثنوغرافيا توسعاً نحو مجالات جديدة مثل:

- . الإثنوغرافيا متعددة المواقع.
- . الإثنوغرافيا المؤسسية.
- . الإثنوغرافيا الرقمية..

6- التحول البراديغمي في دراسة الجمهور

ابتداء من السبعينيات، حدث تحول نحو دراسة الجمهور كفاعل نشط يقوم بفك رموز الرسائل وتأويلها داخل سياقاته الاجتماعية. وظهر مفهوم التشفير وفك التشفير ونظرية التلقي النشط وإنتاج المعنى، بعد أن أصبح السؤال المركزي: ماذا يفعل الجمهور بوسائل الإعلام؟

وقد أصبح الربط بين الإثنوغرافيا ودراسات الجمهور أمراً مركزياً، حيث تستخدم المقاربات الإثنوغرافية لفهم التفاعل الاجتماعي اليومي مع الوسائط الإعلامية، وهو ما يمثل أساساً لدراسة الجمهور في البيئات الرقمية الحديثة مثل فيسبوك وتيك توك والبث المباشر.

المراجع العربية :

عبد الحميد، محمد. (2004). نظريات الإعلام واتجاهات التأثير. القاهرة: عالم الكتب.

مكاوي، حسن عماد، والسيد، ليلي حسين. (2009). الاتصال ونظرياته المعاصرة. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

عبد الرحمن، عواطف عبد الرحمن. (2011). دراسات في الاتصال الجماهيري. القاهرة: دار الفكر العربي.

العبد، عاطف عدلي. (2013). الإعلام والجمهور: دراسات في الاتصال الجماهيري. القاهرة: دار الفكر العربي.

حسين، محمود. (2015). بحوث الإعلام: الأسس والمناهج. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.

شومان، محمد. (2010). نظريات الإعلام المعاصر. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

الفاقي، أحمد. (2016). الإثنوغرافيا في البحث الاجتماعي. القاهرة: دار الفكر المعاصر.

مصطفى، سامي. (2017). الإثنوغرافيا وأبحاث الإعلام. القاهرة: مركز الدراسات الإعلامية.

عبد الكريم، يوسف. (2019). الإثنوغرافيا والتحويلات الاجتماعية. عمان: دار الفكر الجامعي.

الزهراني، ناصر. (2020). كتابة الإثنوغرافيا: أساليب ومنهجيات. الرياض: دار النشر العربية.

المحاضرة رقم 07 : ماهية الإثنوغرافيا والمنهج الإثنوغرافي

1- ماهية المقاربة الإثنوغرافية:

يعود أصل كلمة "الإثنوغرافيا" إلى اللغة اليونانية، حيث تتكون من لفظتين: "اثنوس" أي الأقلية أو الشعب، و"غرافوس" أي الوصف أو التصوير، ليصبح معنى الإثنوغرافيا الدراسة الوصفية للشعوب. ويهدف البحث الإثنوغرافي إلى جمع المعلومات رسداً في المنطقة المعنية وضمن عين المكان، بالملاحظة والمشاركة. وتتجاوز الإثنوغرافيا، وفق تعريف بعض الباحثين، مجرد رصد الأنشطة المادية للشعوب إلى دراسة شعائرها الروحية، وقيمها المعنوية في زمان ومكان محددين.

ويرى كل من Stephan Beaud و Florence Weber أن البحث الإثنوغرافي يعتمد على وصف الأماكن، الأحداث، الأشخاص، والأشياء، ويحتاج الباحث إلى دقة، واهتمام بالتفاصيل الصغيرة، وتوثيقها زمنياً ومكانياً. ويتفق أغلب الباحثين على وجود علاقة معرفية تكاملية وعضوية بين الأنثروبولوجيا، الإثنولوجيا، والإثنوغرافيا، بحيث يشكل كل منها مرحلة أو منظوراً مختلفاً لدراسة واحدة، وليس علوماً منفصلة تماماً (عبد الرحمن، 2011؛ عبد الكريم، 2019).

2- أدوات البحث الإثنوغرافي

تعتمد الإثنوغرافيا على حزمة أدوات متكاملة لجمع مادة بحثية غنية ومتنوعة، أبرزها:

1. **الملاحظة المباشرة:** يتتبع الباحث سلوكيات الأفراد ضمن سياقها الطبيعي دون تدخل مباشر.
2. **الملاحظة بالمشاركة:** تتطلب انخراط الباحث فعلياً في أنشطة الجماعة، ما يعزز فهم المعاني والطقوس من الداخل (حسين، 2015).
3. **المقابلات المعمقة:** تسمح بالكشف عن التصورات الذاتية والمعاني الضمنية التي قد لا تظهر في الملاحظة فقط.
4. **الوثائق المحلية:** مثل اليوميات، الصور، والتسجيلات السمعية والبصرية، والتي توفر بيانات إضافية ومكملة للملاحظات الميدانية (الفي، 2016).

3- إشكالات منهجية وأخلاقية

يواجه العمل الإثنوغرافي تحديات عدة، أبرزها:

- التوقع الذاتي للباحث: تأثير حضور الباحث على سلوك المبحوثين، وكيفية الحفاظ على حياد نسبي دون الانغماس الكامل.
- إشكالية التعميم: صعوبة تعميم النتائج المستخلصة من دراسة مجموعة محددة على مجموعات أخرى.
- الاعتبارات الأخلاقية: تشمل الخصوصية، السرية، والحصول على موافقة المستجيبين بشكل مستنير (مصطفى، 2017؛ الزهراني، 2020).

ويستلزم البحث الإثنوغرافي وعياً نقدياً دائماً وحدوداً واضحة بين المشاركة والتحليل، لضمان جودة المعطيات ومصداقية النتائج.

4-العلاقة بين الإثنوغرافيا، الأنثروبولوجيا، والإثنولوجيا

يتضح من الدراسات أن الإثنوغرافيا تمثل منهجاً بحثياً ضمن الأنثروبولوجيا، وهي أداة أساسية للإثنولوجيا، بحيث:

- . الأنثروبولوجيا: تقدم الإطار النظري لفهم الثقافات والسلوكيات.
- . الإثنولوجيا: تقارن بين الثقافات المختلفة، وتستفيد من نتائج الإثنوغرافيا للتحليل المقارن.
- . الإثنوغرافيا: توفر البيانات الميدانية المباشرة من خلال الملاحظة والمشاركة والمقابلات، لتكون قاعدة للتحليل النظري (عبد الرحمن، 2011؛ عبد الكريم، 2019).

المراجع العربية:

- 1- عبد الحميد، محمد. (2004). نظريات الإعلام واتجاهات التأثير. القاهرة: عالم الكتب.
- 2- عبد الرحمن، عواطف عبد الرحمن. (2011). دراسات في الاتصال الجماهيري. القاهرة: دار الفكر العربي.
- 3- العبد، عاطف عدلي. (2013). الإعلام والجمهور: دراسات في الاتصال الجماهيري. القاهرة: دار الفكر العربي.
- 4- حسين، محمود. (2015). بحوث الإعلام: الأسس والمناهج. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
- 5- الفقي، أحمد. (2016). الإثنوغرافيا في البحث الاجتماعي. القاهرة: دار الفكر المعاصر.
- 6- مصطفى، سامي. (2017). الإثنوغرافيا وأبحاث الإعلام. القاهرة: مركز الدراسات الإعلامية.
- 7- عبد الكريم، يوسف. (2019). الإثنوغرافيا والتحول الاجتماعي. عمان: دار الفكر الجامعي.
- 8- الزهراني، ناصر. (2020). كتابة الإثنوغرافيا: أساليب ومنهجيات. الرياض: دار النشر العربية.

محاضرة رقم 08 : البدايات الاثنوغرافية و تطورها في دراسات
الجمهور:
مقدمة :

ابتداءا من عام 1925 أي قبل الحرب العالمية الثانية أصبحت الدراسات الاثنوغرافية النشاط تخصصيا مستقرا، كما كان هناك تحول من الاهتمام المسيطر بجمع المادة و تراكمها إلى التحليل الأكثر عمقا لأنماط ثقافية معينة، و نذكر كتابات مالمينوفسكي " مجتمع الأرجنوتس في جنوب المحيط الهادي"، كما أدى الإهتمام المتزايد في البحث الحقلي، إلى تنامي التقدير الواعي للطريقة التي يتم بواسطتها تسجيل المادة الحقلية⁴. و قد ساعد هذا النمو الذي تحقق في طرق البحث الإثنوغرافي على القيام بدراسات مقارنة، و التوسع بطريقة ذات دلالة في الإكتشافات القائمة حول المكونات الثقافية، و بعد الحرب العالمية مباشرة بدأت الإثنوغرافيا تجتذب مزيدا من الإهتمام النظري و المنهجي، كما كان هناك تركيز متزايد على أنساق الإتصال و النماذج البنائية مثل كتاب "لوفي ستروس" بعنوان "الأنثروبولوجية البنائية" الذي صدر في سنة 1958، كما كان هناك اهتمام مركز بتنمية وسائل أكثر

فاعلية في حصر المتغيرات الثقافية و الشخصية في المواقف الحقلية الواقعية، مع تنامي عدد الباحثين الإثنوجرافيين المتخصصين.

يحاول الباحث الإثنوغرافي أن يسجل و يصف مظاهر السلوك ذات الدلالة الثقافية في مجتمع معين، هذا الوصف الإثنوغرافي يتطلب قضاء فترة طويلة في الدراسة العميقة، كما يتطلب الإقامة في جماعة صغيرة محددة تماما، و يتطلب المعرفة باللغة التي تتكلمها تلك الجماعة، و الإستخدام الواسع المدى للطرق الفنية في الملاحظة، بما تتضمنه من اتصالات ممتدة مباشرة بأعضاء الجماعة المحلية، و المشاركة المباشرة في بعض نشاطاتها.

بداية من الثمانينات بدأ المنهج الإثنوغرافي يحتل الصدارة في أبحاث الجمهور و تكثف استعماله منذ مطلع القرن الحالي، و يتمثل في دراسة السلوك الإتصالي للجمهور و التفاعلات الممكنة مع الرسائل الإعلامية التي يتلقاها من مختلف الوسائط المتوفرة في الفضاء الإتصالي الجديد الذي تشكل الإنترنت أهم وسائطه على الإطلاق، و هذه الوسيلة أصبحت تنافس التلفزيون، كأداة تكنولوجية منزلية جديدة، و تحول، بالتالي، انشغال الآباء و المربين، إلى التأثيرات المحتملة لهذه الوسيلة الغازية بقوة خارقة و بسرعة فائقة في مختلف مناحي حياة الناس.

هذا الفضاء الإتصالي الجديد هو ، امتداد للفضاء الناجم عن الإستعمال المكثف للتكنولوجيات المنزلية، تعميم الإختيارات المنهجية الإثنوغرافية للتوجه الجديد في أبحاث الجمهور، و هي تدرج، عموما، فيما أصبح يعرف بالمنهجية الإثنوغرافية (ethno-methodologie) في دراسات التلقي، و لقد تكثف استعمال الإتجاه الإثنو-منهجي في دراسات الجمهور على ضوء عولمة الرسائل الإعلامية المتسارعة و المتوسعة بفضل البث التلفزيوني المباشر عبر الاقمار الصناعية و الأنظمة الرقمية و القنوات المشفرة و

تلفزيون الإنترنت، الذي يتوقع أن يحل محل القنوات المشفرة خلال العشرية القادمة.

إثنوغرافيا الجمهور التقليدي:

1- التحول النظري: من جمهور التأثير إلى جمهور المعنى

تمثل إثنوغرافيا الجمهور التقليدي تتويجا لمسار نقدي طويل داخل دراسات الإعلام، انتقل من نموذج التأثير المباشر إلى نموذج الفعل التأويلي. ففي المرحلة السلوكية المبكرة، كان الجمهور يُختزل في متغير تابع يُقاس من خلال الاستجابات والاتجاهات. غير أن التحولات التي شهدتها العلوم الاجتماعية منذ سبعينيات القرن العشرين، خاصة مع صعود البراديغم التفسيري، أعادت تعريف الجمهور بوصفه فاعلا منتجا للمعنى.

وقد شكلت نظرية الاستخدامات والإشباع (Blumler & Katz, 1974) خطوة أولى في هذا الاتجاه، حيث أكدت أن الأفراد يستخدمون الوسائط لإشباع حاجات معرفية ووجدانية واجتماعية. غير أن هذه المقاربة ظلت ذات نزعة نفسية فردية، ولم تُعطِ وزنا كافيا للسياق الاجتماعي البنيوي.

الإثنوغرافيا جاءت لتسد هذا النقص، من خلال ربط التلقي بالبنية الطبقية، وبالنوع الاجتماعي، وبالرأسمال الثقافي. ففي دراسته حول برنامج Nationwide، بين مورلي (1980) أن القراءات الإعلامية تختلف

باختلاف الانتماء الطبقي، وأن المعنى يُنتج داخل شروط اجتماعية محددة، وليس فقط داخل ذهن المتلقي.

2. الفضاء المنزلي كحقل أنثروبولوجي.

ركزت إثنوغرافيا الجمهور التقليدي على الفضاء المنزلي باعتباره موقعا مركزيا لتنظيم التلقي. وقد اعتبر سيلفرستون (1994) أن التلفزيون لا يُستهلك فقط، بل "يُدجّن" داخل الحياة اليومية، أي يُعاد إدماجه في إيقاع الأسرة وقيمها وعلاقات السلطة داخلها. فاختيار البرنامج، وضبط جهاز التحكم، وتحديد وقت المشاهدة، كلها ممارسات تعكس توازنات جندرية وعمرية.

هذا المنظور يكشف أن الوسائط ليست عناصر خارجية محايدة، بل فاعلون رمزيون يشاركون في إعادة تشكيل الزمن العائلي، والحوارات اليومية، وأنماط التنشئة. كما يبين أن التلقي ممارسة اجتماعية جماعية، وليست نشاطا فرديا معزولا.

3- القراءة التفاوضية والسلطة الرمزية

أسهم نموذج التشفير وفك التشفير في تعميق فهم التلقي بوصفه عملية تفاوضية. فالنص الإعلامي يُنتج ضمن أفق مهيمن، لكنه يظل مفتوحا على قراءات متعددة: مهيمنة، متفاوضة، أو معارضة. (Hall, 1980) وقد

كشفت البحوث الإثنوغرافية أن هذه القراءات ترتبط بمواقع الفاعلين داخل البنية الاجتماعية.

غير أن بعض الاتجاهات النقدية حذرت من المبالغة في تصوير الجمهور كفاعل مقاوم دوماً، مشيرة إلى أن حدود المقاومة تتشكل داخل بنى الهيمنة الاقتصادية والسياسية. فالجمهور قد يعيد إنتاج الخطاب السائد دون وعي نقدي كامل، خاصة في سياقات تتسم بضعف التعددية الإعلامية.

4- أبعاد ما بعد كولونيالية

تطرح إثنوغرافيا الجمهور التقليدي في السياق العربي إشكالا إضافيا يتعلق بإعادة اختبار النماذج الغربية. فمفاهيم مثل "الفضاء الخاص" و"الفردانية" قد لا تنطبق بنفس الدرجة في مجتمعات تتسم بالبنى العائلية الممتدة والمرجعية الدينية القوية.

من منظور ما بعد كولونيالي، ينبغي مساءلة الافتراض الضمني بأن أنماط التلقي الغربية تمثل معياراً عاماً. فالتلقي في المجتمعات العربية يتقاطع مع الذاكرة الجماعية، والرمزية الدينية، والسلطة الأبوية، مما يستدعي مقاربة حساسة للسياق الثقافي المحلي.

5- دراسات حالة عربية موسعة

أ. المقاهي بوصفها فضاء عمومياً مصغراً

تكشف الملاحظات الميدانية حول متابعة المباريات الرياضية في المقاهي الجزائرية أن التلقي يتحول إلى طقس جماعي تتقاطع فيه الوطنية بالانتماء المحلي وبأداء الرجولة. فالهتاف الجماعي، والتعليق الفوري، والانفعال المشترك، كلها أفعال رمزية تعيد إنتاج التضامن الاجتماعي. ويمكن قراءة المقهى هنا بوصفه امتدادا للمجال العمومي، حيث يُمارس النقاش السياسي والاجتماعي بشكل غير مباشر.

ب. الدراما العابرة للحدود وإعادة تشكيل المخيال

أظهرت بحوث حول تلقي الدراما التركية في البيوت العربية أن هذه الأعمال تُستقبل ضمن أفق مزدوج: أفق الانجذاب إلى أنماط حدثية في العلاقات العاطفية، وأفق إعادة تأكيد القيم الأسرية المحلية. وتكشف المقابلات المعمقة أن النساء، على سبيل المثال، لا يستهلكن الخطاب الرومانسي بشكل سلبي، بل يطورن قراءات نقدية تُعيد موضعه داخل منظومتها القيميّة.

ج. البرامج الدينية والفتوى التلفزيونية

تحولت برامج الفتوى إلى فضاء تفاعلي يعيد تشكيل العلاقة بين المؤسسة الدينية والجمهور. فالمشاهد يطرح سؤاله مباشرة، ويتلقى الإجابة في سياق علني، مما ينتج شكلا من "التدين الوسائطي" الذي يجمع بين المرجعية التقليدية وآليات الاتصال الحديثة.

6- تركيب نظري

يمكن القول إن إثنوغرافيا الجمهور التقليدي كشفت أن التلقي عملية اجتماعية مركبة، تتداخل فيها البنى الطباقية، والعلاقات الجندرية، والرمزية الدينية، وأن المعنى لا يُختزل في النص ولا في نية المرسل. ومع ذلك، فإن هذا النموذج يظل مرتبطاً بفضاءات فيزيائية محددة، وهو ما يمهد للانتقال نحو دراسة الجمهور داخل الفضاءات الشبكية الرقمية

الإثنوغرافيا هي منهج بحث كفي يعتمد على النزول إلى الميدان ودراسة الجماعات في سياقها الطبيعي عبر:

. الملاحظة المباشرة

. الملاحظة بالمشاركة

. المقابلة المعمقة

. تحليل الوثائق

الفرق بين الإثنوغرافيا والإثنو-منهجية

. الإثنوغرافيا: وصف وتأويل ثقافة جماعة معينة عبر عمل ميداني طويل.

. الإثنو-منهجية: دراسة الطرق التي يستخدمها الأفراد لإنتاج النظام الاجتماعي في حياتهم اليومية.

المحاضرة رقم 09: إثنوغرافيا الجمهور الرقمي

التحول المفاهيمي: من الجماعة إلى الشبكة

مع بروز المجتمع الشبكي، لم يعد الجمهور كيانا متماسكا في فضاء جغرافي محدد، بل أصبح شبكة من العلاقات الرقمية المتقاطعة. يشير مانويل كاستلز إلى أن السلطة في المجتمع الشبكي تتشكل عبر التحكم في تدفق المعلومات، وهو ما يجعل المنصات الرقمية فاعلا بنويا في تشكيل الوعي الجماعي.

تستند الإثنوغرافيا الرقمية إلى تصور الثقافة بوصفها عملية مستمرة من الأداء والتمثيل. فالهوية الرقمية تُبنى عبر الصور، والمنشورات، والتعليقات، وعدد المتابعين، وهي بذلك رأسمال رمزي قابل للتحويل إلى رأسمال اقتصادي.

المنهج والأدوات

تعتمد الإثنوغرافيا الرقمية على التتبع طويل الأمد للحسابات، وتحليل التفاعلات، والمشاركة في المجموعات المغلقة، إضافة إلى تحليل الأرشيف الرقمي. غير أن هذا الميدان يطرح تحديات خاصة، مثل سيولة الهوية، وتعدد الحسابات، وصعوبة التحقق من المعطيات.

كما تفرض الخوارزميات نفسها بوصفها وسيطا خفيا يعيد ترتيب الواقع المعروض للمستخدم. ومن هنا يصبح الباحث مطالبا بفهم البنية التقنية للمنصة، وليس فقط محتواها الظاهر.

أبعاد نقدية معمقة

تطرح الإثنوغرافيا الرقمية إشكالية العلاقة بين الحرية والرقابة. فبينما تمنح المنصات إمكانات واسعة للتعبير، فإنها تخضع في الوقت نفسه لمنطق اقتصاد الانتباه، حيث تتحول البيانات إلى سلعة، ويصبح المستخدم منتجا غير مدفوع للبيانات.

كما يثير الفضاء الرقمي سؤال الأصالة: هل الهوية المعروضة انعكاس للذات الحقيقية أم أداء استعراضية؟ هنا يمكن الاستفادة من تصور غوفمان حول تقديم الذات، مع إعادة قراءته في ضوء البيئة الرقمية.

دراسات حالة :

المؤثرون والاقتصاد الرمزي : تشير بحوث حول المؤثرين إلى أن المنصات الرقمية أعادت تشكيل مفهوم المكانة الاجتماعية. فعدد المتابعين أصبح رأسمالا رمزيا يمكن تحويله إلى رأسمال اقتصادي عبر الإعلانات والرعاية التجارية. غير أن هذه الدينامية تثير تساؤلات حول الأصالة والتمثيل الحقيقي للهوية.

الطقوس الدينية عبر البث المباشر: انتقلت الممارسات الدينية في صورة الصلوات والدروس الدينية إلى المنصات الرقمية. وقد أظهرت المقابلات أن المشاركة عبر التعليقات والدعاء الرقمي تولد إحساسا جماعيا بالانتماء رغم التباعد الفيزيائي، مما يدل على أن المقدس نفسه قابل لإعادة التشكل رقميا.

تركيب مقارن

إذا كانت إثنوغرافيا الجمهور التقليدي قد ركزت على التفاعل الوجيه والفضاء المنزلي، فإن الإثنوغرافيا الرقمية تدرس تفاعلا وسيطا بخوارزميات ومنصات. غير أن القاسم المشترك بينهما هو مركزية المعنى

والسياق. فسواء تعلق الأمر بمقهى شعبي أو بمجموعة فيسبوك، فإن الجمهور يظل فاعلا يعيد إنتاج الرموز داخل شروطه الاجتماعية.

وعليه، فإن المقاربة المعاصرة مطالبة بدمج الحساسية الكلاسيكية للمعايشة الميدانية مع وعي نقدي بالبنى التقنية والاقتصادية التي توّطر الفضاء الرقمي.

تعميق نظري مقارن

إذا كانت إثنوغرافيا الجمهور التقليدي قد ركزت على الفضاء الفيزيائي، فإن إثنوغرافيا الجمهور الرقمي تنطلق من مفهوم "المجال الشبكي" حيث تتداخل الحدود بين العام والخاص. فالمستخدم في المنصات الرقمية ليس مجرد متلقٍ، بل منتج محتوى (Prosumer)، يشارك في صناعة الخطاب وإعادة توزيعه.

نظريا، تستند هذه المقاربة إلى مفاهيم المجتمع الشبكي (Castells, 1996) والثقافة التشاركية (Jenkins, 2006)، حيث تصبح الهوية عملية أدائية مستمرة. كما أن مفهوم "الذات المعروضة" عند غوفمان يجد امتداده في الفضاء الرقمي، إذ يتحكم المستخدم في صورته عبر اختيار الصور والمنشورات والتعليقات.

نقديا، تثير الإثنوغرافيا الرقمية إشكالات تتعلق بالتحيز الخوارزمي، والاقتصاد السياسي للمنصات، وتحويل البيانات إلى سلعة. فالمعنى لا يُنتج فقط بين المستخدمين، بل يتشكل أيضا عبر تدخلات خفية للخوارزميات التي تحدد ما يظهر وما يُخفى..

المحاضرة رقم 10 : مدخل نظري إلى إثنوغرافيا المنصات الرقمية

أدت التحولات الرقمية التي عرفها العالم خلال العقود الأخيرة إلى إعادة تشكيل أنماط التفاعل الاجتماعي والثقافي، حيث أصبحت المنصات الرقمية فضاءات أساسية للحياة اليومية للأفراد. فلم تعد العلاقات الاجتماعية تقتصر على المجال الفيزيائي، بل امتدت إلى المجال الافتراضي الذي أصبح مجالاً خصباً للدراسة الأنثروبولوجية.

في هذا السياق ظهر ما يعرف بـ الإثنوغرافيا الرقمية أو إثنوغرافيا الإنترنت، وهي مقاربة منهجية تهدف إلى دراسة الثقافات والممارسات الاجتماعية التي تتشكل داخل البيئات الرقمية، مثل الشبكات الاجتماعية ومنصات الألعاب والبث المباشر. (Hine, 2015)

تعتمد هذه المقاربة على توظيف أدوات الإثنوغرافيا التقليدية – مثل الملاحظة بالمشاركة وتحليل الخطاب – في دراسة التفاعلات التي تتم عبر الوسائط الرقمية. ويشير الباحث روبرت كوزينيتس إلى أن المجتمعات الافتراضية تمتلك أنماطاً ثقافية خاصة بها، تتجلى في اللغة والرموز والطقوس الرقمية التي يطورها المستخدمون أثناء تفاعلهم داخل المنصات (Kozinets, 2015).

كما يرى عالم الاجتماع مانويل كاستلز أن المجتمع المعاصر أصبح يقوم على ما يسميه **مجتمع الشبكات**، حيث تتشكل العلاقات الاجتماعية عبر شبكات الاتصال الرقمية التي تربط الأفراد ببعضهم البعض عبر فضاءات عابرة للحدود الجغرافية. (Castells, 2010)

وبذلك أصبحت المنصات الرقمية فضاءات اجتماعية وثقافية معقدة تستحق الدراسة الإثنوغرافية لفهم كيفية تشكل الهويات الرقمية وأنماط التفاعل الاجتماعي وإنتاج المعاني والرموز داخل المجتمعات الافتراضية.

2- دراسة جماعات فيسبوك

تعد جماعات فيسبوك من أبرز الفضاءات الرقمية التي تتشكل فيها مجتمعات افتراضية قائمة على الاهتمامات المشتركة. وتسمح هذه الجماعات

للمستخدمين بالتفاعل حول موضوعات محددة مثل التعليم، الثقافة، السياسة، أو القضايا المحلية.

يرى الباحثون في مجال الإثنوغرافيا الرقمية أن هذه الجماعات تمثل نوعاً من المجتمعات المتخيلة التي تتشكل حول الاهتمام المشترك وليس حول القرب الجغرافي. (Miller et al., 2016)

خصائص جماعات فيسبوك

1- بناء الهوية الجماعية

تساهم الجماعات الرقمية في تشكيل هوية جماعية بين أعضائها من خلال اللغة المستخدمة في التفاعل والمواضيع المشتركة والرموز الثقافية المتداولة.

كما قد تتشكل داخل هذه الجماعات ثقافة فرعية رقمية تميزها عن غيرها من الجماعات.

2- القواعد الضمنية للتفاعل

لكل جماعة قواعد غير مكتوبة تنظم التفاعل بين الأعضاء مثل نوع المحتوى المقبول وأسلوب النقاش وحدود النقد أو المزاح.

هذه القواعد تمثل ما يسميه بعض الباحثين الأعراف الرقمية التي تنظم السلوك داخل المجتمعات الافتراضية. (Hine, 2015)

3- ديناميكيات السلطة الرقمية

تظهر داخل الجماعات الرقمية أشكال مختلفة من السلطة مثل سلطة المشرفين (Admins) أو سلطة الأعضاء المؤثرين أو سلطة الخبرة أو المعرفة. وتمثل هذه العلاقات نوعاً من التراتبية الاجتماعية الرقمية.

نموذج إثنوغرافي عربي

يمكن للباحث دراسة جماعات فيسبوك المحلية في المدن العربية، مثل الجماعات الخاصة بالمدن أو القرى.

مثال بحثي:

دراسة جماعات فيسبوك الخاصة بإحدى المدن الجزائرية، حيث يتم تحليل:

- . طبيعة المنشورات
- . نوع التفاعل
- . القضايا المحلية المطروحة
- . شكل التضامن الاجتماعي داخل الجماعة.

وقد أظهرت بعض الدراسات أن هذه الجماعات تلعب دوراً مهماً في:

- . تداول الأخبار المحلية
- . التعبير عن الرأي العام
- . تنظيم المبادرات الاجتماعية.

3- مجتمعات الألعاب الإلكترونية

شهدت الألعاب الإلكترونية تطوراً كبيراً خلال السنوات الأخيرة، حيث تحولت من مجرد نشاط ترفيهي إلى فضاءات اجتماعية وثقافية تفاعلية.

فالألعاب الجماعية عبر الإنترنت تتيح للاعبين التفاعل مع أشخاص من مختلف أنحاء العالم، مما يؤدي إلى نشوء مجتمعات افتراضية قائمة على التعاون والمنافسة.

خصائص مجتمعات الألعاب

1- الهوية الافتراضية

يمتلك اللاعب داخل اللعبة شخصية رقمية تعرف باسم **Avatar** تمثل هويته داخل العالم الافتراضي. وغالباً ما يقوم اللاعب بتخصيص هذه الشخصية بما يعكس هويته أو طموحاته داخل اللعبة.

2- الطقوس الرقمية

تتضمن مجتمعات الألعاب مجموعة من الطقوس الرقمية مثل:

- . تشكيل الفرق
- . التعاون بين اللاعبين
- . المشاركة في التحديات الجماعية.

3- اللغة الخاصة بالألعاب

لكل مجتمع ألعاب لغة اصطلاحية خاصة مثل:

GG

Noob

XP

وتمثل هذه المصطلحات جزءاً من الثقافة الرقمية للاعبين.

نموذج إثنوغرافي عربي

تشير بعض الدراسات إلى انتشار مجتمعات الألعاب الإلكترونية بين الشباب العربي، خاصة في الألعاب الجماعية مثل:

PUBG .

Free Fire .

Fortnite .

وقد أظهرت بعض الدراسات الميدانية أن هذه الألعاب أصبحت فضاءً للتواصل الاجتماعي بين الشباب، حيث يقضون ساعات طويلة في التفاعل والتعاون داخل اللعبة. كما تشكل هذه المجتمعات فضاءً لتبادل النكات والمصطلحات الخاصة و استراتيجيات اللعب.

4- جمهور تيك توك

يعد تيك توك من أكثر المنصات الرقمية تأثيراً في الثقافة الرقمية المعاصرة، حيث يعتمد على الفيديوهات القصيرة والانتشار السريع للمحتوى.

وقد أصبح هذا التطبيق فضاءً لإنتاج ثقافة رقمية قائمة على الإبداع والتقليد والتفاعل الجماعي.

خصائص جمهور تيك توك

1-ثقافة الترنند

يقوم المستخدمون بإنتاج محتوى يتبع ما يسمى الترنند، حيث يتم تقليد نفس الفكرة أو الصوت أو الحركة من قبل آلاف المستخدمين.

2-ثقافة التقليد الرقمي

يعتمد تيك توك على ما يسميه الباحثون ثقافة التقليد الرقمي حيث يعيد المستخدمون إنتاج نفس المحتوى بطرق مختلفة.

3-اقتصاد الانتباه

تتنافس الحسابات على جذب أكبر قدر من المشاهدات و الإعجابات والتعليقات وهو ما يعرف في الدراسات الإعلامية بـ اقتصاد الانتباه.

نموذج إثنوغرافي عربي

في السياق العربي يمكن دراسة:

- محتوى الكوميديا القصيرة
- الفيديوهات التعليمية
- الفيديوهات المرتبطة بالحياة اليومية.

وقد أظهرت بعض الدراسات أن تيك توك أصبح وسيلة للتعبير عن الثقافة الشعبية اليومية لدى الشباب العربي.

5- التفاعل في البث المباشر

يمثل البث المباشر أحد أهم أشكال التفاعل الرقمي في المنصات الاجتماعية فهو يسمح بالتواصل الفوري بين صانع المحتوى والجمهور، مما يخلق نوعاً من التفاعل اللحظي.

خصائص التفاعل في البث المباشر

1. التفاعل الفوري عبر التعليقات
2. تقديم الهدايا الرقمية
3. بناء علاقة شبه شخصية مع الجمهور.

يشير بعض الباحثين إلى أن هذا النوع من التفاعل يخلق ما يسمى المجتمعات التفاعلية المباشرة التي تتشكل حول صانع المحتوى.

6-ثقافة التعليق في المنصات الرقمية

تعد التعليقات أحد أهم أشكال التعبير داخل المنصات الرقمية. فالتعليق يمثل ممارسة ثقافية تعكس المواقف الاجتماعية والقيم الثقافية والانتماءات الرمزية.

أنواع التعليقات

1. التعليقات الداعمة
2. التعليقات النقدية
3. التعليقات الساخرة
4. التعليقات الصراعية.

تحليل التعليقات يساعد الباحث على فهم الرأي العام الرقمي واتجاهات الجمهور.

7-منهجية البحث في إثنوغرافيا المنصات الرقمية

يعتمد الباحث الإثنوغرافي على مجموعة من الأدوات المنهجية مثل:

- 1- الملاحظة بالمشاركة الرقمية : يشارك الباحث في التفاعل داخل المنصة لفهم الثقافة الرقمية للمجتمع المدروس.
- 2- تحليل المحتوى الرقمي : تحليل المنشورات والفيديوهات والتعليقات.
- 3- تحليل الخطاب الرقمي : دراسة اللغة المستخدمة في التفاعل الرقمي.
- 4- المقابلات الرقمية : إجراء مقابلات مع المستخدمين عبر الإنترنت.

خاتمة

تشكل المنصات الرقمية اليوم فضاءات اجتماعية وثقافية معقدة تعيد تشكيل العلاقات الإنسانية وأنماط التواصل بين الأفراد. ومن خلال الإثنوغرافيا الرقمية يمكن للباحثين فهم هذه التحولات من خلال دراسة الممارسات اليومية للمستخدمين والرموز الثقافية التي تنتج داخل المجتمعات الافتراضية.

وبذلك تساهم هذه المقاربة في الكشف عن التحولات العميقة التي يشهدها المجتمع المعاصر في ظل الثورة الرقمية وانتشار وسائل التواصل الاجتماعي.

المحاضرة 11: التحول نحو الفضاء الرقمي

مع بروز الإنترنت ومنصات التواصل الاجتماعي، انتقل الميدان الإثنوغرافي من الفضاءات المحلية المغلقة إلى فضاءات افتراضية عابرة للحدود. لم يعد الباحث يدرس جماعة متجانسة في قرية أو حي، بل شبكات رقمية متداخلة تتشكل حول اهتمامات مشتركة.

الإثنوغرافيا الرقمية تدرس كيفية بناء الهوية عبر الملفات الشخصية، والصور، والتعليقات، وكيف تتشكل الطقوس الرقمية مثل الإعجاب والمشاركة والبث المباشر. كما تحلل ديناميات القوة داخل المنصات، وعلاقات التأثير بين المؤثرين والمتابعين.

وقد بينت أعمال باحثين معاصرين أن الفضاء الرقمي ليس منفصلاً عن الواقع الاجتماعي، بل امتداد له، حيث تتقاطع فيه القيم المحلية مع العولمة الثقافية. فالمستخدم لا يعيش حياة مزدوجة بين حقيقي وافتراضي، بل يدمج تجربته الرقمية في سيرته الاجتماعية اليومية.

الإثنوغرافيا الرقمية تفرض كذلك تحديات جديدة تتعلق بتخزين البيانات الضخمة، وأخلاقيات الموافقة، وحدود المجال العام والخاص. لذلك يتعين

على الباحث تطوير أدوات تحليلية مرنة تسمح بفهم هذا العالم المتغير باستمرار.

وبذلك يتضح أن المنهج الإثنوغرافي، سواء في صيغته الكلاسيكية أو الرقمية، يظل أداة مركزية لفهم التحولات العميقة التي يشهدها جمهور الوسائط في العصر المعاصر.

تعميق نقدي مقارن: الإثنوغرافيا الكلاسيكية والإثنوغرافيا الرقمية

يمكن فهم التحول من الإثنوغرافيا الكلاسيكية إلى الإثنوغرافيا الرقمية باعتباره انتقالاً من دراسة الجماعات المحلية المتماسكة نسبياً إلى دراسة شبكات مرنة عابرة للحدود. فالإثنوغرافيا الكلاسيكية، كما تجسدت في أعمال مالينوفسكي (1922) وليفي-ستروس (1958)، قامت على فرضية وجود ثقافة متجانسة نسبياً يمكن الإقامة داخلها زمناً طويلاً لفهم بنيتها العميقة. أما الإثنوغرافيا الرقمية، كما طورتها هاين (2015) وبينك وآخرون (2016)، فتنتقل من تصور الثقافة بوصفها متدفقة، هجينة، ومتشابكة رقمياً.

من الناحية المنهجية، كان الباحث الكلاسيكي ينتقل إلى "الميدان" الجغرافي، بينما أصبح الميدان اليوم متعددًا، متنقلًا، وموزعًا عبر منصات مختلفة. كما أن مفهوم "الملاحظة بالمشاركة" تغير؛ إذ لم يعد يقتصر على التواجد الفيزيائي، بل أصبح يشمل التفاعل عبر الحسابات الرقمية، والمشاركة في النقاشات الافتراضية، وتتبع الأرشيف الرقمي.

نقدياً، تُتهم الإثنوغرافيا الرقمية أحياناً بالوقوع في سطحية المعطيات بسبب سرعة التغير الرقمي، في حين تُنتقد الإثنوغرافيا الكلاسيكية بنزعتها نحو التجانس الثقافي وإغفال علاقات القوة الاستعمارية التي رافقت نشأتها

(Clifford & Marcus, 1986) وعليه، فإن المقاربة المعاصرة مطالبة بدمج الحساسية التاريخية والنقدية مع أدوات التحليل الرقمي.

دراسات حالة عربية موسعة

1-التلقي الأسري للفضائيات

أظهرت الدراسات حول التلقي المباشر للفضائيات داخل الأسر المغربية أن المشاهدة تتم وفق ضوابط ثقافية واجتماعية دقيقة. فقد كشفت الدراسة عن بروز أشكال تفاوضية داخل الأسرة بشأن اختيار القنوات، وعن إعادة تعريف السلطة الأبوية في ظل الانفتاح الإعلامي. هذه النتائج تؤكد أن التلقي ليس فعلا فرديا، بل ممارسة جماعية مؤطرة بقيم محلية.

2- استخدام وسائل التواصل الاجتماعي في السياق الجزائري

بينت دراسات ميدانية حديثة حول استخدام فيسبوك في الجزائر (قسايسية، 2012) أن المنصة تحولت إلى فضاء لإعادة إنتاج الروابط القرابية والمناطقية، وليس فقط للتواصل الافتراضي. كما أظهرت أن الخطاب الرقمي يعكس تمثلات الهوية والانتماء والذاكرة الجماعية.

3.الطقوس الرقمية في المدمع العربي

أشارت بحوث حول ثقافة سناب شات وإنستغرام في المجتمعات العربية إلى أن النشر اليومي للصور ومقاطع الحياة الخاصة أصبح ممارسة طقوسية لإثبات الحضور الاجتماعي، مما يعكس تحولا في مفهوم الخصوصية والتمثيل الذاتي.(Al Zidjaly, 2017)

هذه الدراسات العربية تبرز أهمية إدماج البعد الثقافي المحلي في تحليل الممارسات الرقمية، وتؤكد أن العولمة الرقمية لا تلغي الخصوصيات الاجتماعية.

المحاضرة رقم 12 : منهجية البحث الإثنوغرافي و تطبيقاتها في الدراسات الإعلامية:

أسس البحث الإثنوغرافي و أدواته:

يقوم البحث الإثنوغرافي على تواجد الباحث بميدان البحث في المجتمع المدروس تواجد مستمرا، قد يصل إلى عدة أعوام، و يقوم الباحث خلال إقامته في مجتمع البحث بملاحظة سلوك أعضاء المجتمع و الاندماج فيه اندماجا يمكن عن طريقه أن يعرف بقدر الإمكان كيف يتحدث و يفكر و يعمل كأحد أعضاء ثقافة ذلك المجتمع، و البحث الإثنوغرافي الجيد حسب "مارسال موس" Marcel Mause هو الذي يستغرق أربع سنوات في مكان محدد، و البحث الإثنوغرافي المعمق، هو الذي يعتمد على الملاحظة العميقة و الكاملة

و بالنسبة لـ "مارسال موس" Marcel Mause، لدراسة أي مجتمع ينبغي دراسة مايلي:

- مورفولوجيا اجتماعية: فكل مجتمع يتكون من سكان، و دراسة السكان في الميدان يطلق عليه مورفولوجيا اجتماعية، التي تحتوي على ديمغرافيا و جغرافيا الإنسان.
- فيزيولوجيا اجتماعية: تدرس الظواهر في حركيتها و تطورها و استمراريتها سواء كانت تقنيات، جماليات، اقتصاد، قانون، الدين، العلوم، الهندسة المعمارية.
- ظواهر اجتماعية: لغة، علم السلوك أو الأخلاقيات الجماعية، ظواهر وطنية، ظواهر دولية.

و يتطلب البحث الإثنوغرافي مشاركة كلية للباحث، و انفتاح ذهني و مهارات و تدريبات على تقنيات الملاحظة و استعمالها في مختلف التحقيقات

الاجتماعية، كما يحتاج أحيانا استثمار في الوقت و الجهد لتعود الدارس على مجال البحث و الإندماج فيها، و إلى جانب المشاركة الكلية و الملاحظة المباشرة و المستمرة للسلوك اليومي، قد يلجأ الباحث إلى تقنيات المقابلة على مستويات مختلفة و الحوار و مجموعة أخرى من الإجراءات لكشف الارتباطات العلائقية بين مختلف الأفراد و الجماعات المدروسة من بنوة و مصاهرة و معتقدات و طقوس محلية من شأنها أن تساهم في تفسير مظاهر التمايز و التماثل، و المتنافرات و التقاطعات في ممارسات الحياة اليومية.

كما أنه لا يمكن الحديث عن النزول الميداني وتبني أسلوب الملاحظة أو الملاحظة المشاركة أو المقابلة دون الإشارة إلى المعرفة اللغوية أي معرفة لغة الأهالي المبحوثين، وقد أثار هذه النقطة عدد من الباحثين الانثروبولوجيين والذين اعتبروا المعرفة اللغوية شرطا أساسيا لكل باحث ينوي النزول إلى الميدان، لأن جهل لغة الأهالي من قبل الباحث تؤدي إلى عدد من المشاكل التي تسيء إلى الباحث وإلى موضوعه حيث وجد نفسه مضطرا لطلب خدمة ومساعدة مترجمين أو دليل الذي هو في أغلب الحالات من سكان المنطقة و عضو من الأهالي المبحوثين، غير أن هذا الإجراء قد لا يؤدي دائما دوره العلمي كما يجب أن يكون، فالمترجم قد يعجز عن نقل كل الحقائق الثقافية والاجتماعية و النفسية و العقائدية للمبحوثين نقلا صادقا و أميناً، فكثيرا ما يلجأ إلى الحذف أو التغيير أو الإضافات من إبداعه الخاص و الشخصي، فيبدع مادة ليست لها أي علاقة بالمبحوثين ونسبها إليهم، فيتبناها الباحث و يدونها و يعتمدها في دراسته، وهذا أمر مرفوض، خاطئ وخطير، ومن هذا المنطلق أكد الباحثون على ضرورة تعلم الباحث لغة الأهالي لأنها هي الوحيدة التي تلهمه تأشيرة الاندماج الصادق و الطبيعي بين الأهالي وتمكنه من جمع مادته مباشرة من أفواه و مصادر أصحابها دون وسيط.

و في السنوات الأخيرة لقد عرف البحث الميداني تطورا كبيرا و ذلك لاستعانة الباحث أثناء تواجده في الميدان بالوسائل السمعية البصرية

المتطورة التي سمحت له بتسجيل كل شاردة وواردة وكل ما عجز أو غاب عن تسجيله الكتابي أو عجزت ذاكرته استيعابه وتذكره، لقد بدأ يستعمل وسائل متعددة ومتطورة في التسجيل الفوتوغرافي، إذا اقتضى الأمر لاستعمال الصورة وتصوير بعض الأحداث أو بعض السلوكيات سواء صورة جامدة أو تسجيل الأحداث والممارسات في وقتها الأنّي، في صورة فيلم يعود إلى مشاهدة ورؤية الأحداث من جديد و هي تتحرك وقتما شاء وأينما شاء.

لقد قدمت هذه الوسائل السمعية البصرية خدمات مهمة للباحث الميداني و أمدته بطاقات موضوعاتية غزيرة كما ساعدتها في تسيير وقت البحث واقتصاد طاقاته التي لم يعد يستثمرها في العودة إلى الميدان في مناسبات مختلفة لرؤية نفس الحدث أو المشهد، فيكفيه إعادة سماع التسجيل الصوتي أو إعادة مشاهدة التسجيل الفوتوغرافي أو الفيلم ليعيش ميدانه دوماً وأبداً قريباً منه وحيّاً يتحرك أمامه.

المحاضرة رقم 13: أدوات البحث الإثنوغرافي

تندرج هذه المحاضرة ضمن محور أدوات البحث الإثنوغرافي، الذي يُعد من أهم المحاور المنهجية في دراسة الجمهور داخل علوم الإعلام والاتصال، لما يوفره من تقنيات نوعية تسمح بالاقتراب من الواقع الاجتماعي في سياقاته الطبيعية وفهم الممارسات اليومية للأفراد داخل بيئاتهم الثقافية. وتكتسي هذه الأدوات أهمية خاصة في ظل التحول من المقاربات الكمية التي تركز على القياس والوصف الإحصائي إلى المقاربات الكيفية التي تهتم بالمعنى والتفسير والفهم العميق للسلوك الإنساني. ومن هذا المنطلق، تهدف هذه المحاضرة إلى التعريف بأهم الأدوات الإثنوغرافية المعتمدة في البحث الميداني، وعلى رأسها الملاحظة والملاحظة بالمشاركة والمقابلة، مع إبراز خصائص كل أداة وشروط استخدامها وأهميتها في دراسة جمهور وسائل الإعلام والاتصال، بما يسمح للطلاب بفهم كيفية بناء معرفة علمية انطلاقاً من الميدان وليس فقط من النظريات المجردة.

1-الملاحظة:

تعتبر الملاحظة من أهم وسائل البحث وجمع المعلومات "فقد استخدمت في جمع المعلومات لدى جميع الشعوب، بدائية كانت أو متحضرة، في الماضي أو في الحاضر، و ذلك من أجل الحصول على المعلومات عن الأشياء والمواقف المحيطة بهم و التعرف على ظواهر الحياة ومشكلاتهم"¹⁰، فينزل الباحث الإثنوغرافي إلى الميدان و يلاحظ الناس ويتابع أنشطتهم المختلفة في كل مكان وفي كل زمان، و في أوقات مختلفة، فالباحث يقف موقف الملاحظ و المعاین و المشاهد، يرى و يسمع ويحس ثم ينقل و يسجل و يدون في كراسته، غير أن الملاحظة قد تكشف في بعض الحالات عن قصورها ومحدودية مردودها ولا تفي بالغرض العلمي المطلوب، الأمر الذي يفرض عليه البحث عن وسيلة بحث أخرى و عن إجراء تقني أكثر فاعلية حتى تقترب أكثر فأكثر من مادة موضوعه فيتعدى مستوى الملاحظة ليمر إلى مستوى الاندماج الكلي مع الأهالي حيث يشاركونهم نشاطهم اليومي كعضو ينتمي إلى جماعتهم، وقد تصل به درجة الاندماج إلى حالة يوشك أن يكون فيها باحثا وموضوع البحث في نفس الوقت، فتتحول في هذه الحالة الملاحظة البسيطة إلى الملاحظة المشاركة أو الملاحظة بالمشاركة. ومتابعة السلوك في سياقه الطبيعي دون تدخل مباشر.

2- الملاحظة بالمشاركة:

يعرفها الباحث "عاطف وصفي" بأنها: "بكل بساطة مشاركة الباحث في النشاط الاجتماعي و الثقافي الذي يقوم به أهالي منطقة الباحث هذا من جهة، ومن جهة ثانية الحضور الشخصي والدائم والمستمر بينهم طيلة مدة إنجاز البحث و جمع مادته"¹¹، غير أن الباحث يمكن أن يفقد في الكثير من الأحيان صفات الباحث تحت ضغط العلاقات الإنسانية التي أصبحت تربطه بالأهالي نتيجة قوة الاندماج مع المبحوثين ومن ثمة فإن "دور الباحث أثناء قيامه

بالملاحظة يجب أن يكون ثانويًا، و أن مشاركته في الأنشطة لا تعني أنه أصبح واحداً من أعضاء المجتمع، بل يجب أن يتذكر دائماً الغرض من المشاركة هو ملاحظة المجتمع من الداخل".¹²

إلا أن الملاحظة بالمشاركة كأداة للبحث الميداني عملية صعبة و معقدة و شاقة، تفرض على الباحث شروط و إجراءات مادية و معنوية و سلوكية قد لا يقدر أحيانا على تحملها و التكفل بها من حيث الطرح الثقافي و المعرفي و الاجتماعي و النفسي و الإقتصادي و العقائدي، فإن الباحث "يذهب إلى المجتمع الذي يدرسه ليعيش فيه فترة من الزمن لاكتساب ثقة الأفراد و جمع المعلومات اللازمة و لا يبدأ الزيارة بالدراسة و توجيه الأسئلة، و إنما يتعلم أسلوب الحياة الجديدة، فعليه أن يتكلم لغتهم و يستخدم في تفكيره نفس التصورات أو المفاهيم السائدة و يشعر بالقيم التي يعتنقونها و يعمل معهم و يشاركهم طعامهم و احتفالاتهم و ارتداء ملابسهم، و من هذا المنطلق، تفرض الملاحظة بالمشاركة على الباحث من حيث الطرح التقني و الإجرائي خطوات صارمة، حيث يبدأ، أول ما يبدأ به بعد اختيار موضوعه، تحديد الميدان و التعرف على الأهالي و أصلهم و نسبهم و تاريخهم و عاداتهم و تقاليدهم و معتقداتهم ثم الإقتراب منهم تدريجيا حتى ينال رضاهم و ثقتهم و قدرتهم على القبول اندماجه بينهم دون عنف أو استعمال الكذب أو الحيلة أو التسرع، و لقد أكد الباحثون في مادة الميدان على ضرورة احترام هذا السلوك الإندماجي الهادئ و التدريجي.

انخرط الباحث في الحياة اليومية للجماعة مع الحفاظ على مسافة تحليلية.

1. المقابلة المعمقة

2. المقابلة:

تعد المقابلة من الإجراءات المهمة التي قد يعتمد عليها الباحث في جمع مادة بحثه و بالتالي فإن شأنها من شأن الملاحظة و الملاحظة بالمشاركة حيث

يتجه الباحث نحو أناس يقابلهم و يتحدث معهم حول موضوع بحثه و كل ما يتعلق به بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة و ذلك حسب الظروف و الحالات النفسية و الثقافية و الإجتماعية للمبحوثين.

إن المقابلة "بوصفها وسيلة لجمع البيانات و المعلومات يعتمد فيها الباحث على المحادثة الموجهة مع الآخرين من أفراد مجتمع البحث الذي يقوم بدراسته، و تعتبر المقابلة مصدرا مهما من مصادر المعلومات بالإضافة إلى أهمية استخدام المقابلة مع الإخباريين بهدف تجمع أكبر قدر من المعلومات و إلقاء الضوء على بعض الجوانب التي توصل إليها الباحث من خلال عملية الملاحظة بالمشاركة"¹³.

نستنتج أن المقابلة كإجراء بحثي تختلف عن المحادثة العادية و لمنهجية يكون قد حددها مسبقا الباحث من أجل إنجاح بحثه و تحقيق أهدافه، كما يمكن للباحث أن تواجه عدة صعوبات أثناء إجراء المقابلة يجب أن يأخذها بعين الاعتبار و يحسب لها حسابات معرفية و نفسية و اجتماعية و ثقافية و منها:

- ضرورة اختيار الأشخاص الممكن مقابلتهم و التحوار معهم و محادثتهم محادثة عملية و لأهداف علمية، أي لا بد و أن يتم اختيار المبحوثين الذين تتوفر فيهم الثقة، و الصدق و المعرفة الواسعة بشؤون المنطقة و الأهالي.

- ضرورة اختيار الأسئلة الهادفة و المفيدة و المثمرة و الواضحة و التي لا تخرج المبحوث هذا من جهة، و من جهة أخرى لا بد و أن تكون الأسئلة ذات الصلة الوطيدة بموضوع البحث، و هنا تظهر قدرة الباحث على أن يحدث المبحوث و يثير اهتمامه متدرجا بالأسئلة، من السؤال البسيط إلى المركب، و لاشك أن طرح بعض الأسئلة المحرجة أو الحماسة تترك المقابلة تماما و تؤثر سلبيا على سيرها، فلا بد أن يكون لدى الباحث القدرة و اللياقة في طرح مثل هذه الأسئلة.

- ضرورة اختيار وقت المقابلة، أي الوقت الذي يناسب خاصة المبحوث و يكون حرا، و متفرغا للمقابلة و المحادثة بعيدا عن العمل أو عن أي انشغال آخر و الذي يتحكم في حضوره للمقابلة أو أن زمن المقابلة قد يزعجه و يمنعه من أداء بعض الواجبات أو بعض الأعمال الخاصة به.

- ضرورة اختيار مكان المقابلة، بعيدا عن أنظار الناس الذين يزعجون المبحوث بضجتهم أو أن المبحوث نفسه قد يتضايق من حضورهم و يكون في وضعية حرجة و لا يفصح عن مكبوتاته أو يريد أن يكتم بعض أفكاره خوفا من الحضور أو حياء منهم.

- ضرورة احترام الحالة النفسية للمبوثين و عدم إجبارهم على المقابلة حيث "قد يحدث في كثير من الأحيان أن تقطع المقابلة لأسباب و ظروف طارئة، كعدم رغبة المبحوث في استكمال المقابلة بسبب نفوره من الموضوع أو ملله من تعدد المقابلات أو غير ذلك من الأسباب"¹⁴.

على الباحث أن يوسع في مجال و دائرة مبحثية و ينوع و يكثر من المقابلات و تعدد و اختلاف المبحوثين و مقابلاتهم حول الموضوع الواحد قد يكشف عن الاختلافات أو الأفكار الخاطئة و المزيفة التي قد تكون من وحي و إبداع المبحوث أثناء المحادثة، فعن طريق المقابلة يقوم الباحث بمراجعة المادة المستوحاة من الملاحظة فضلا عن الحصول على المعلومات محددة عن جوانب معينة من السلوك، كما يمكن استخدامها في حث الإخباريين و تشجيعهم على أن يتحدثوا أو أن يتغلبوا على أحجامهم في مناقشة نقاط معينة من خلال طرح بعض الأسئلة المفتوحة أو المقننة.

و يمكن القول أن المقارنة الإثنوغرافية مهمة جدا في الأبحاث الاجتماعية عامة، و علوم الإعلام والاتصال خاصة، وذلك لقدرتها على تجاوز سلبيات استعمال تقنية الاستمارة في جمع البيانات و صعوبات اختيار العينة التمثيلية، التي واجهها معظم الباحثين في أبحاث عينة الدراسة، وهو أيضا تحدي يواجه الباحثين في مجال الجمهور

خاتمة

يتضح أن أدوات البحث الإثنوغرافي تمثل ركيزة أساسية في بناء المعرفة الكيفية حول الظواهر الاجتماعية والاتصالية، حيث تتيح للمعالج البحثي إمكانية فهم السلوك الإنساني في سياقه الطبيعي بعيداً عن التبسيط أو التجريد المفرط. فالملاحظة، والملاحظة بالمشاركة، والمقابلة ليست مجرد تقنيات لجمع البيانات، بل هي مداخل معرفية متكاملة تساعد الباحث على النفاذ إلى عمق الممارسات اليومية للجمهور، وفهم معانيها ودلالاتها الثقافية والاجتماعية. كما أن التكامل بين هذه الأدوات يعزز من دقة النتائج ويحد من التحيزات، ويُسهّم في بناء تحليل علمي أكثر شمولاً وعمقاً. وبذلك، تُعد هذه الأدوات أساساً منهجياً لا غنى عنه لكل باحث يسعى إلى دراسة الجمهور بوصفه فاعلاً اجتماعياً وثقافياً داخل بيئات إعلامية تقليدية ورقمية متغيرة باستمرار

المحاضرة رقم 14 : نماذج لبحوث إثنوغرافية الجمهور

خطت الدراسات الإعلامية خطوة متقدمة صوب عمليات التلقي و تطورت تطورا كبيرا، من خلال عناية النماذج الاتصالية بعملية تلقي الخطاب وفك الرموز اللغوية للرسائل المرسله عبر الوسائل الاتصالية إلى المتلقي، الذي اهتمت به النظرية النقدية و علوم السيميولوجيا و تحليل الخطاب و الإثنوغرافيا.

وبعد ستيوارت هال (Stuart Hall) ممن أسسوا لتحليل التلقي النشط في الدراسات الإعلامية من خلال مقاله الشهير حول التشفير وفك تشفير مضامين الخطاب التلفزيوني، حيث يرى أن سيرورة الاتصال التلفزيوني تمر بأربع مراحل مختلفة تتمثل في: الإنتاج و التوزيع و الإستهلاك و إعادة الإنتاج، فالجمهور بالنسبة ل ستيوارت هال يمثل مصدر الرسالة و المتلقي في الوقت نفسه، ذلك أن لحظة التشفير لا تحيل إلى التصور الذي تحمله المؤسسة الإعلامية وليس إلى توقعات الجمهور فقط، وإنما إلى المعايير التي تدرج ضمن العمل المهني ومن ثم فالممارسة الإعلامية وفق "هال" هي بناء اجتماعي للمعنى هو في الأخير نتاج ثقافة المتلقي.

لقد لاحظ روبرت آلان (Robert Allen) أنه بالإمكان تطبيق نظرية القراءة على التلفزيون، حيث استبدل القارئ الضمني، في ميدان التلقي البصري، وهو ذلك الشخص الذي سيحضره منتج الرسالة التلفزيونية في عمله، ويكون مدرجا في الأعمال التلفزيونية القائمة على الخيال كالدراما الفيلمية مثلا، وبعبارة أخرى، يستحضر المنتج في الرسالة التي ينتجها نوع المشاهد الذي يتصوره، أي يكتب لأشخاص يفترض أنه يعرف قدراتهم على الفهم و التأويل.

و من ثم يؤرخ العقد الثامن من القرن الماضي لمرحلة أخرى من تطور بحوث الإعلام الجماهيري، تميزت بظهور أنموذج جديد انتقلت فيه الدراسات من محور التأثير و دراسة ماذا تفعل وسائل الإعلام بالجمهور الذي التصقت به خاصية "السلبية المطلقة" أمام "القوى الخارقة" لوسائل

الإعلام إلى ماذا يفعل الجمهور بوسائل الإعلام في محور التلقي الذي أعاد الإعتبار إلى الجمهور كطرف نشط فعال و مؤثر و مشارك في إعداد الرسائل الإعلامية، مرورا بتجزئته و تحليله جزئيا و إثنوغرافيا في سياق الإستعمال المنزلي لوسائل الإتصال في المجتمعات الصناعية و ما بعد الصناعية، و هذا ما قام به David Morley (1986) في دراسة تحت عنوان "Family Television" لاكتشاف مختلف التفاعلات داخل الأسرة كوحدة قاعدية للتحليل، حول شاشة التلفزيون في السياق الطبيعي لتلقي المواد التلفزيونية في الفضاء العائلي، و تم إنجازها على 18 أسرة من العرق الأبيض، في جنوب لندن، و تتكون كل واحدة من شخصين بالغين، و طفلين أو أكثر دون سن الثامنة عشر، و تملك مسجل فيديو، و أغلبيتها تنتمي إلى الطبقة العاملة أو إلى البرجوازية الصغيرة، و قام "مورلي" بإبراز المكانة التي يحتلها التلفزيون في النشاط الترفيهي لمختلف الأسر، و إظهار التوزيع غير المتكافئ لسلطة اتخاذ القرار بين الجنسين بشأن البرامج التي تشاهدة أوقات المشاهدة، و مختلف سلوك تلقي البرامج التلفزيونية، كما استخلص "مورلي" عدة نتائج أهمها:

- ينفرد الرجال غالبا بسلطة اختيار البرامج.
 - تستخدم النساء التلفزيون كمادة للدردشة، في حين يرفض الرجال التحدث عنه.
 - تفضل النساء مشاهدة الدراما و برامج الخيال.
 - يفضل الرجال مشاهدة برامج الرياضة، و النشرات الإخبارية.
 - الإختلافات بين أفراد الجمهور ليست فقط سيكولوجيو أو ثقافية بالتعود، و إنما أيضا إلى إختلافات إثنوية.
- فكانت الإنطلاقة لتغيير توجهات أبحاث الجمهور و استخدام المقاربة الإثنوغرافية، فوجد الباحث باريوس Barrios في دراسته الإثنوغرافية لمشاهدي الأوبرات الصابونية اللاتينية (1988)، و التي أجريت في

فنزويلا على 13 أسرة، على الطريقة الإنشائية المتبادلة التي تتشابك بها مشاهدة التلفزيون مع تنظيم الحياة الأسرية، فقد أظهرت الدراسة اندماج مشاهدة التلفزيون داخل الروتين اليومي للحياة الأسرية- الإستيقاظ من النوم في الصباح، أوقات تناول وجبات الطعام، أوقات أداء الواجبات المدرسية، العودة من العمل... الخ، وكانت النقطة ذات الأهمية الخاصة، هي الحيز الطقوسي المقدس المنشأ حول فترتي عرض المسلسلات في التلفزيون و الذي كان حدوث أية مقاطعة للمشاهدة فيه مثارا استياء و غضب، و كان ذلك مهما بصفة خاصة للنساء اللاتي تمحورت حياتهن حول العمل المنزلي و لكنه لعب أيضا دورا في حياة الرجال و الأبناء، و الواقع أن الأسئلة المتصلة بمن يشاهد ماذا في التلفزيون؟ و متى و أين؟ كانت محور سياسة الأسرة، و قد شجعت التواصل بين أفراد الأسرة و عطلته في آن واحد.

و في سنة 1998 قام الباحث عبد الرحمن عزيري في دراسة تحت عنوان "المقاربة الإثنوغرافية للتلقي المباشر للفضائيات التلفزيونية في وسط الأسر المغربية"، التعرض إلى التفاعلات الأسرية مع الفضائيات التلفزيونية في سياق أسري، و في ظل الخصائص الإجتماعية و الثقافية للمجتمع المغربي، و استخدم الباحث المقاربة الإثنوغرافية التي تهتم بمختلف أنماط تلقي الرسائل الإعلامية في ظل نظرية التلقي التي تعتبر المتلقي إيجابيا، كما قام بدراسة 12 أسرة مغربية و استعان بالتحليل الكيفي باستعمال أداة الملاحظة بالمشاركة كأداة أساسية في البحوث الإثنوغرافية، و توصل إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- يفضل أفراد الأسرة المغربية مشاهدة البرامج التلفزيونية مشاهدة جماعية أكثر من المشاهدة الفردية، و التي تتم وفق ضوابط اجتماعية و ثقافية، تلعب دور في اختيار القنوات التلفزيونية و البرامج المشاهدة.

- توصل الباحث على مستوى التفاعلات الأسرية إلى أشكال جديدة في وسط العائلة، المغربية فيما تعلق بمفهوم السلطة، القوة، و غيرها.

- البرامج التلفزيونية المشاهدة من طرف أفراد الأسر المغربية الملاحظة، هي برامج تم اختيارها حسب متطلبات الحياة اليومية للأفراد، و يتم تأويلها وفقا لسماتهم الثقافية و الإجتماعية.

- استطاع التلفزيون أن يدي إلى ظهور سلوكيات جديدة في وسط الأسر المغربية سواء من حيث البرامج أو القنوات الوطنية المغربية خاصة في مجال العلاقات الإجتماعية.

و مع بداية العشرية التاسعة من القرن الماضي، عرفت دراسات الاستعمالات المنزلية لتكنولوجيات الإعلام و الاتصال تطورا آخر، يتعلق بتنسيق دراسة التلفزيون في إطار اجتماعي-تقني وثقافي أوسع والالتزام بعمل إمبريقي إثنوغرافي من شأنه أن يساعد على فهم ظاهرة التلقي المعقدة وإدراك ديناميكية منزلية التكنولوجيات داخل العائلات-أي إدماج هذه التكنولوجيات في الفضاء الأسري اليومي-والكيفية التي تعمل بها كل عائلة في إدارة فضائها الاجتماعي و التكنولوجي، و ينبغي أن تفهم دلالات التلفزيون كخصوصيات صاعدة للممارسة المسيقة للتلقي وأن هذه الممارسات تشكل داخل المحيط الاجتماعي الجزئي الذي تكونه الأسرة و التفاعلات التي تجري في هذا المحيط.

نزعت الخيارات المنهجية الحديثة لأبحاث التلقي إلى التوجه الإثنوغرافي الذي تجاوز حدود التوجه الإمبريقي المفرط في استخدام النتائج الكمية و العناصر الإحصائية، دون مراعاة السياقات الإجتماعية المتعددة التي تحدث فيها عمليات الاتصال بأنواعها المختلفة، و تتضمن المنهجية الإثنوغرافية (Ethnométhodologie) في دراسات التلقي، تحديد إثنوغرافيا الجمهور و إجراء تحريات عملية حول أنظمة التأويل و العمليات التي يقوم بها المتلقون. و تستند خطوات البحث إلى مختلف وحدات التحليل:

الفرد باعتباره موضوع اجتماعي و ذات فردية و الجماعة و العلاقات ما بين الذات المشتركة في تجربة الحياة اليومية للجماعة و هو ما يعني أن المنظور

الإثنوميتولوجي و تحديد أدوات البحث الاثنوغرافية صممت بالكامل للسماح بالوصول إلى المجالات "الطبيعية" و خصائصها، إذ تسمح المقاربة الاثنوغرافية في السياق إشكالية التلقي التي تحاول فهم التلقي اليومي لوسائل الإعلام بدخول عوالم الأسر، في سياق إطار نشاطها الفردي و الاجتماعي "النزول إلى الميدان" لمحاولة وصف و تفسير ممارسات الموضوعات في سياقها الثقافي، استنادا إلى ملاحظات الأنشطة اليومية التي تتيح تسهيل فهم الصلات بين الجوانب المختلفة للظاهرة قيد الدراسة، و بشكل عام، تساعد المقاربة الاثنوغرافية على فهم و تحديث العمليات و الممارسات التي تكتسب من خلالها وسائل الإعلام و التكنولوجيات الحديثة للاتصال معان و رموز، فالمقاربة الإثنوغرافية ببعديها الوصفي و التأويلي حسب دافيد مورلي توفر إمكانية "مشاهدة التلفزيون" في سياق أوسع يدرس الاستهلاك كرمز أو كمشارك في خلق عالم رمزي للمعنى.

و رغم تعدد أهميتها في بحوث الإعلام و الاتصال، و ذلك لقدرتها على تجاوز سلبيات استخدام البحوث الكمية و إشكالية تمثيلية عيناتها، تواجه المقاربة الإثنوغرافية انتقادات حول انتقاء مجتمعات الدراسة و مداها و عينتها التي تكون في الغالب ضيقة للغاية و تحد من نطاقها

موضوعات بحثية مقترحة:

- إثنوغرافيا التعليقات في البث المباشر
- طقوس النشر اليومي في إنستغرام
- ثقافة الإعجاب والمشاهدة المكثفة
- المخيال الاجتماعي في الفضاء الرقمي
- تمثيلات العين والحسد في بيئة العرض الرقمي

تطبيقات بيداغوجية : يكلف الطلبة بإنجاز:

1. تقرير ملاحظة إثنوغرافية لمجتمع رقمي.

2. تحليل تفاعلات أسرة مع وسيلة إعلامية.
3. دراسة حالة لجمهور منصة رقمية.

خاتمة

تمثل إثنوغرافيا جمهور المستخدمين تحولا نوعيا في دراسة الاتصال، إذ تنتقل مركز الاهتمام من الرسالة إلى المتلقي، ومن القياس الكمي إلى الفهم التأويلي، ومن الجمهور المتلقي إلى المستخدم المنتج للمعنى داخل فضاءات اجتماعية ورقمية متغيرة.

هذه المادة تُمكن الطالب من امتلاك أدوات علمية لتحليل التحولات الاتصالية المعاصرة في سياقها الثقافي والاجتماعي.

مراجع لها صلة بالموضوع :

1. الخشاب أحمد، دراسات أنثروبولوجيا، ط1، دار المعارف، مصر، 1970.
2. الغامري محمد حسن، طريقة الدراسة الأنثروبولوجيا الميدانية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1985.
3. العثمان أحمد وسام، المدخل إلى الأنثروبولوجيا الأهالي للطباعة والنشر و التوزيع، دمشق 2002.
4. ألان روبرتز. التلفزيون والنقد المبني على القارئ، تر: حياة جاسم محمد، سلسلة دراسات إعلامية، الألكسو، تونس، 1997.
5. باكر كريس، التلفزيون والعولمة والهويات الثقافية، تر: علاء أحمد إصلاح، ط1، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2000.
6. دينس ماكويل، سفن ويندل، نماذج الاتصال في الدراسات لإعلامية، تر: بيت العال أحمد حمزة، ط1، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1997.
7. فكار رشدي، عن الحوار الحضاري في بعد واحد، ط1، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1988.
8. قسايسية علي، جمهور وسائط الإتصال و مستخدموها، ط1، دار الورسم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2012.
9. ماتلار أرمان و ميشال، تاريخ نظريات الإتصال، تر. نصر الدين العياضي والصادق رابح، ط1. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.

10. محجوب محمد عبده، مقدمة لدراسات المجتمعات البدوية (منهج و تطبيق). وكالة المطبوعات ، الكويت، 1974.
 11. محجوب محمد عبده، إثنوغرافيا المجتمعات البدوية العربية، ط1، دار الكتب، 1998.
 12. منصور هالة، محاضرات في علم الأنثروبولوجيا، الهيئة العامة لدار الكتب، 1998.
 13. وصفي عاطف، الأنثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1971.
 - 14- الجوهري، محمد. (2010). الأنثروبولوجيا: الأسس النظرية والمنهجية. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
 - 15- الخولي، سناء. (2009). الأنثروبولوجيا الاجتماعية. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
 - 16- حسن، حسن. (2006). الأنثروبولوجيا الثقافية. القاهرة: دار الفكر العربي.
 - 17- عبد الغني، عماد. (2014). مدخل إلى الأنثروبولوجيا الثقافية. عمان: دار المسيرة.
 - 18- حسين، محمود. (2015). بحوث الإعلام: الأسس والمناهج. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
 - 19- الفقي، أحمد. (2016). الإثنوغرافيا في البحث الاجتماعي. القاهرة: دار الفكر المعاصر.
 - 20- مصطفى، سامي. (2017). الإثنوغرافيا وأبحاث الإعلام. القاهرة: مركز الدراسات الإعلامية.
 - 21- عبد الكريم، يوسف. (2019). الإثنوغرافيا والتحول الاجتماعي. عمان: دار الفكر الجامعي.
 - 22- الزهراني، ناصر. (2020). كتابة الإثنوغرافيا: أساليب ومنهجيات. الرياض: دار النشر العربية.
 - 23- حسين علي - الميثافيزيقيا والعلم ، دار قباء للطباعة والنشر و التوزيع ، القاهرة ، 2006 ،
 - 24- حسين فيهم ، قصة الانثروبولوجيا ، عالم المعرفة ، العدد 98 ، الكويت -، 1986
- المراجع بالأجنبية :

1-Mondher kimani ;anthropologie du local au global ; armond calin ;France ,2009 ; p153

الإستيقاظ من النوم في الصباح، أوقات تناول وجبات الطعام، أوقات أداء الواجبات المدرسية، العزلة من العمل... الخ، وكانت النقطة ذات الأهمية الخاصة، هي الحيز الطقوسي المقدم بعد المنشيء حول فترتي عرض المسلسلات في التلفزيون و الذي كان حدوث أية مقاطعة للمشاهدة فيه ماثرا استياء و غضب، و كان ذلك مهما بصفة خاصة للنساء اللاتي تمحورت حياتهن حول العمل المنزلي و لكنه لعب أيضا دورا في حياة الرجال و الأبناء، و الواقع أن الأسئلة المتصلة بمن يشاهد ماذا في التلفزيون؟ و متى و أين؟ كانت محور سياسة الأسرة، و قد شجعت التواصل بين أفراد الأسرة و عطلته في آن واحد.

و في سنة 1998 قام الباحث عبد الرحمن عزابري في دراسة تحت عنوان "المقاربة الإثنوغرافية للتلقي المباشر للفضائيات التلفزيونية في وسط الأسر المغربية"، التعرض إلى التفاعلات الأسرية مع الفضائيات التلفزيونية في سياق أسري، و في ظل الخصائص الإجتماعية و الثقافية للمجتمع المغربي، و استخدم الباحث المقاربة الإثنوغرافية التي تهتم بمختلف أنماط تلقي الرسائل الإعلامية في ظل نظرية التلقي التي تعتبر المتلقي إيجابيا، كما قام بدراسة 12 أسرة مغربية و استعان بالتحليل الكيفي باستعمال أداة الملاحظة بالمشاركة كأداة أساسية في البحوث الإثنوغرافية، و توصل إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- يفضل أفراد الأسرة المغربية مشاهدة البرامج التلفزيونية مشاهدة جماعية أكثر من المشاهدة الفردية، و التي تتم وفق ضوابط إجتماعية و ثقافية، تلعب دورا في اختيار القنوات التلفزيونية و البرامج المشاهدة.

- توصل الباحث على مستوى التفاعلات الأسرية إلى أشكال جديدة في وسط العائلة، المغربية فيما يتعلق بتعبير يوم السلطة، القوة، وغيرها.

- البرامج التلفزيونية للمشاهدة من طرف أفراد الأسر المغربية الملاحظة، هي برامج تم اختيارها حسب متطلبات الحياة اليومية للأفراد، و يتم تأويلها وفقا لسماتهم الثقافية و الإجتماعية.

- استطاع التلفزيون أن يدي إلى ظهور سلوكيات جديدة في وسط الأسر المغربية سواء من حيث البرامج أو القنوات الوطنية المغربية خاصة في مجال العلاقات الإجتماعية.

و مع بداية العشرة التاسعة من القرن الماضي، عرفت دراسات الاستعمالات المنزلية لتكنولوجيات الإعلام و الاتصال تطورا آخر، يتعلق بتنسيق دراسة التلفزيون في إطار اجتماعي-ثقافي أوسع والالتزام بعمل إمبريقي إثنوغرافي من شأنه أن يساعد على فهم ظاهرة التلقي المعقدة وإدراك ديناميكية منزلية التكنولوجيات داخل العائلات-أي إدماج هذه التكنولوجيات في الفضاء الأسري اليومي-والكيفية التي تعمل بها كل عائلة في إدارة فضاءها الاجتماعي و التكنولوجي، و ينبغي أن تفهم دلالات التلفزيون كخصوصيات صاعدة للممارسة المسيقة للتلقي وأن هذه الممارسات تشكل داخل المحيط الاجتماعي الجزئي الذي تكونه الأسرة و التفاعلات التي تجري في هذا المحيط.

نزعت الخيارات المنهجية الحديثة لأبحاث التلقي إلى التوجه الإثنوغرافي الذي تجاوز حدود التوجه الإمبريقي المفرط في استخدام النتائج الكمية و العناصر الإحصائية، دون مراعاة السياقات الإجتماعية المتعددة التي تحدث فيها عمليات الاتصال بأنواعها المختلفة، و تتضمن المنهجية الإثنوغرافية (Ethnométhodologie) في دراسات التلقي،

تحديد إثنوغرافيا الجمهور و إجراء تحريات عملية حول أنظمة التأويل و العمليات التي يقوم بها المتلقون. و تستند خطوات البحث إلى مختلف وحدات التحليل:

الفرد باعتباره موضوع اجتماعي و ذات فردية و الجماعة و العلاقات ما بين الذات المشتركة في تجربة الحياة اليومية للجماعة و هو ما يعني أن المنظور الإثنوميتودولوجي و تحديدا أدوات البحث الإثنوغرافية صممت بالكامل للسماح بالوصول إلى المجالات "الطبيعية" و خصائصها، إذ تسمح المقاربة الإثنوغرافية في السياق إشكالية التلقي التي تحاول فهم التلقي اليومي لوسائل الإعلام بدخول عوالم الأسر، في سياق إطار نشاطها الفردي و الاجتماعي "النزول إلى الميدان" لمحاولة وصف و تفسير ممارسات الموضوعات في سياقها الثقافي، استنادا إلى ملاحظات الأنشطة اليومية التي تتيح تسهيل فهم الصلات بين الجوانب المختلفة للظاهرة قيد الدراسة، و بشكل عام، تساعد المقاربة الإثنوغرافية على فهم و تحديث العمليات و الممارسات التي تكتسب من خلالها وسائل الإعلام و التكنولوجيات الحديثة للاتصال معان و رموز، فالمقاربة الإثنوغرافية ببعديها الوصفي و التأويلي حسب دافيد مورلي توفر إمكانية "مشاهدة التلفزيون" في سياق أوسع يدرس الاستهلاك كرمز أو كمشارك في خلق عالم رمزي للمعنى.

و رغم تعدد أهميتها في بحوث الإعلام و الاتصال، و ذلك لقدرتها على تجاوز سلبيات استخدام البحوث الكمية و إشكالية تمثيلية عيناتها، تواجه المقاربة الإثنوغرافية انتقادات حول انتقاء مجتمعات الدراسة و مداها و عينتها التي تكون في الغالب ضيقة للغاية و تحد من نطاقها

موضوعات بحثية مقترحة:

• إثنوغرافيا التعليقات في البث المباشر





- طقوس النشر اليومي في إنستغرام
- ثقافة الإعجاب والمشاهدة المكثفة
- المخيال الاجتماعي في الفضاء الرقمي
- تمثيلات العين والحسد في بيئة العرض الرقمي

تطبيقات بيداغوجية : يكلف الطلبة بإنجاز:

1. تقرير ملاحظة إثنوغرافية لمجتمع رقمي.
2. تحليل تفاعلات أسرة مع وسيلة إعلامية.
3. دراسة حالة لجمهور منصة رقمية.

خاتمة

تمثل إثنوغرافيا جمهور المستخدمين تحولا نوعيا في دراسة الاتصال، إذ تنقل مركز الاهتمام من الرسالة إلى المتلقي، ومن القياس الكمي إلى الفهم التأويلي، ومن الجمهور المتلقي إلى المستخدم المنتج للمعنى داخل فضاءات اجتماعية ورقمية متغيرة.

هذه المادة تُمكن الطالب من امتلاك أدوات علمية لتحليل التحولات الاتصالية المعاصرة في سياقها الثقافي والاجتماعي.

مراجع لها صلة بالموضوع :

1. الخشاب أحمد، دراسات أنثروبولوجيا، ط1، دار المعارف، مصر، 1970.
2. الغامري محمد حسن، طريقة الدراسة الأنثروبولوجيا الميدانية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1985.

3. العثمان أحمد وسام، المدخل إلى الأنثروبولوجيا الأهالي للطباعة والنشر و التوزيع، دمشق 2002.
4. ألان روبيرتز: التلفزيون والنقد المبني على القارئ، تر: حياة جاسم محمد، سلسلة دراسات إعلامية، الألكسيس تونس، 1997.
5. باكر كرويس، التلفزيون والعملة والهويات الثقافية، تر: علاء أحمد إصلاح، ط1، مجموعة النيل العربية، القاهرة، 2000.
6. دينس ماكويل، سفن ويندل، نماذج الاتصال في الدراسات لإعلامية، تر: بيت العال أحمد حمزة، ط1، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1997.
7. فكار رشدي، عن الحوار الحضاري في بعد واحد، ط1، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1988.
8. قسايسية علي، جمهور وسائط الإتصال و مستخدموها، ط1، دار الورسم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2012.
9. ماتلار أرمان و ميشال، تاريخ نظريات الإتصال، تر: نصر الدين العياضي والصادق رايح، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.
10. محجوب محمد عبده، مقدمة لدراسات المجتمعات البدوية (منهج و تطبيق). وكالة المطبوعات، الكويت، 1974.
11. محجوب محمد عبده، إثنوغرافيا المجتمعات البدوية العربية، ط1، دار الكتب، 1998.
12. منصور هالة، محاضرات في علم الأنثروبولوجيا، الهيئة العامة لدار الكتب، 1998.
13. وصفي عاطف، الأنثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية، بيروت، 1971.
- 14- الجوهري، محمد. (2010). الأنثروبولوجيا: الأسس النظرية والمنهجية. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
- 15- الخولي، سناء. (2009). الأنثروبولوجيا الاجتماعية. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- 16- حسن، حسن. (2006). الأنثروبولوجيا الثقافية. القاهرة: دار الفكر العربي.
- 17- عبد الغني، عماد. (2014). مدخل إلى الأنثروبولوجيا الثقافية. عمان: دار المسيرة.
- 18- حسين، محمود. (2015). بحوث الإعلام: الأسس والمناهج. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
- 19- الفقي، أحمد. (2016). الإثنوغرافيا في البحث الاجتماعي. القاهرة: دار الفكر المعاصر.

- 20-مصطفى، سامي. (2017). الإثنوغرافيا وأبحاث الإعلام. القاهرة: مركز الدراسات الإعلامية.
- 21-عبد الكريم، يوسف. (2019). الإثنوغرافيا والتحول الاجتماعي. عمان: دار الفكر الجامعي.
- 22-الزهراني، ناصية. (2020). كتابة الإثنوغرافيا: أساليب ومنهجيات. الرياض: دار النشر العربية.
- 23-حسين علي. الميثاقية والعلم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006
- 24-حسين فهم، قصة الأنثروبولوجيا، عالم المعرفة، العدد 98، الكويت، 1986.

المراجع بالأجنبية :

1-Mondher kimani ;anthropologie du local au global ; armond calin ;France ,2009 ; p153

